ظاهرة النفاق

في

اطار الموازين الاسلامية

الدكتور عمرو خليفة النامي

الدار السلفية
الكويت

ظاهرة النفاق
في اطار الموازين الاسلامية

الدكتور عمرو خليفة النامي

الدار السلفية
الكويت

بسم اللـــه الرحمن الرحيـــم

«٠٠ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ»

قرآن كريم (المنافقون : ٤)

★ ★ ★

« أربع من كُنَّ فيه كان منافقا خالصا ٠ ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتـى يدعها : اذا اؤتمن خان ، واذا حدّث كـذب ، واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر» ٠

حديث شريف ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

موضـوعـــات البحـــث

تمهيـــد ٩

الفصـــل الاول المشكلة والمنهج . ١٥

الفصل الثاني أصـــل الاصـــطلاح . ٢٥

الفصل الثالث ابتداء ظاهرة النفاق في المدينة . ٣٣

الفصل الرابـــع المظاهر العملية لتحرّكات المنافقين في المدينة . ٤٥

الفصل الخامس ظاهرة النفاق في اطار الموازين الاسلامية . ٨٣

اولا : موقف المنافقين من العقيدة . ٨٨

ثانيا : موقف المنافقين من الصّلاة . ١٠٤

ثالثا : موقف المنافقين من النّفقة والصّدَقَات . ١١٢

رابعا : موقف المنافقين من الجهاد . ١١٩

الفصل السادس المـــلامح العامـــة لظاهرة النفاق . ١٢٩

الفصل السابع أحكـــــام المنافقـــــين . ١٤٥

خاتمـــــة . ١٦٤

تمهيـــــــد ...

هذه الفصول التي أقدمها للقارىء الكريم تهدف الى تسليط الضّوْء على ظاهرة النفاق كما تحددها الموازين الاسلامية ، وكما كشفتها الاحداث في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

كان وضوح العقيدة الاسلامية وتكامل منهجها من العوامل الاساسية التي كشفت نماذج بشرية صنفتها الموازين الاسلامية حسب تجاوبها مع العقيـــدة الاسلامية ومتطلباتها سلبا وايجابا ٠٠٠

والعقيدة الاسلامية تعنى بوضوح «التسليم الكامل لله» ، والخضوع التام لامره ، والتصديق الجازم برسالة الرسول عليه السلام ، ونبوّته ، والطاعـة التامة لاوامره ، والانتهاء الصارم عن نواهيه ٠ والالتزام قدر الجهد والاستطاعة باوامر الله وتعاليم دينه في السر والعلن٠وذلك كله في اطار منهج دقيق محكم يوجه نشاط الانسان كله في جميع صوره ، الصغير منها والكبير ، والجليـل والحقير ، وجهة تنتهي في غايتها الى الاسلام الكامل لله والاذعان التام له ٠

والغاية التي تستهدفها تعاليم الاسلام في شرائعه وشعائره هي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، وذلك بعبادته وحده والاتجاه اليه في كـل مـا شرعه من عبادات تعين العبد على استكمال صفة «التقوى» وتحقق له الصلة الدائبة المستمرة ، والرقابة الدائمة لله تعالى في كل عملـه ٠٠ وكذلك في الالتزام بجميع النظم والقواعد التي خطها التشريع الاسلامي لحياة الجماعة ونظم بها صلات الافراد فيما بينهم ، ورسـم فيهـا سياسـة الدولـة وقوانين العمران والاجتماع ٠

والناس في حياتهم امام صراع متجدد ومعركة متصلة يفرضها التفاعل بين نوازع الخير والشر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ٠ وقد مضـى أمر الصراع في حياة «الانسان» في هذا الاطار وكانت المعركة في حقيقتهـا بين الحق والباطل والهدى والضلال ٠ وما ينعكس من ظواهر الصراع ان هو الا تعبير وتجسيم لحقيقة هذا الصراع الدائم الدائب الذي بنى الله عليه أمر الناس وحياتهم : «ولولا دَفْعُ اللّهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ على العَالَمِين» ٠(١)

---

(١) سورة البقرة(٢٥١)

واذا كان «الفساد في الارض» انما هو في حقيقته كل ما يؤدي الى التنكر لشريعة الله سبحانه التي ارسل بها رسله والتي وضعت موازين الحق والعدل لحياة الناس ، فان منهج الاصلاح الذي حملت النبوة اعباءه كان هو المنهج الوحيد الاصيل لاحقاق الحق ودرء الفساد واجتثاثه «... **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**»(١) وهو منهج مستقل بذاته في مصدره ، متميز في اهدافه ووسائله · وصورة التفاعل بين هذا المنهج الاسلامي المتميز وما حوله تتم في اطار التناقض والاحتكاك التلقائي الذي يفرضه التقاء عنصرين ينعدم الانسجام بينهما ويصر احدهما على الحلول محل الاخر ·· وهنا ووفق اسلوب المنهج الاسلامي الذي لا يقبل ان ينازعه غيره من المناهج على التحكم في حياة البشر ، فان الواقع الاجتماعي لاي جماعة من الناس يبتعد عن الاسلام كلما فقد الانسجام مع منهجه وتعاليمه وكلما تعارض في تصوراته وانظمته ومعاملاته عن تلك التصورات والانظمة والمعاملات التي يقررها الاسلام ·· وصفة «الاسلام» بالنسبة للفرد او للجماعة او للدولة ، تتحقق بمدى ارتباطهم بأحكامه وتعاليمه ومدى التزامهم بوسائله واهدافه ··· وقد وضع المنهج الاسلامي نفسه ميزانا دقيقا يستطيع الناس ـ دائما ـ ان يقيسوا عليه انفسهم واحوالهم ليتبينوا مدى اتصافهم بصفة الاسلام او مدى ابتعادهم عنه · والقضية على الحالين جد لا هزل فيه ، فانت اما ان تكون في صف الاسلام ، فانت من جند الرحمن ، تلتزم اوامره وتهتدي بهديه وتعيش وفق احكام دينه القويم ـ او تكون في صف الشيطان تعادي الله وتحاده ، تعصي اوامره ، وتتنكب عن هديه وتنهج غير سبيل الله ··· وكل سبيل غير سبيل الرحمن هي سبيل الشيطان مهما كان اسمها وايا كان وصفها ، او مهما اتخذته من وسائل الخداع والتمويه او اتخذه له اصحابها من اساليب التبرير او التزوير «**فَمَاذَا بَعْدَ الحقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ**» (٢) · وعندما يستشعر المرء للحظة واحدة انه سيجد خارج اطار الاسلام ونظمه ما هو خيرا منه فقد خطا خطوته المدمرة المهلكة الى مهاوي الردى لينضم الى القطيع الضال الهالك ·

وقد ختم الله رسالاته الى الناس بهذه الرسالة العظيمة التي قام نبينا عليه الصلاة والسلام بتبليغها الى كافة الناس ـ فكان اسلوب التبليغ نفسه منهجا ثابتا لاتباع هذه الرسالة يقتدون به ويستأنسون بهديه في تبليغهم رسالة الاسلام

---

(١) سورة هود : ٨٨
(٢) سورة يونس : ٣٢

بعده لمن يتتابع من اجيال الناس . والمسلمون مكلفون بتبليغ الرسالة الى الناس كافة جيلا بعد جيل ، وهم الشهداء على الناس بما استحفظهم الله تعالى من هذا الحق المبين : «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...»(١) .

والناس من بعد ثلاثة اصناف :

صنف آمن بالله وصدق رسوله ولزم دينه ، فهو دأبه يسعى لينال رضى الله سبحانه وليفوز برحمته ويدخل جنته ، لا يدخر في ذلك وسعا . فهو اما في فرض او سنة او عمل صالح او امر بمعروف او نهي عن منكر او جهاد في سبيل الله بما اوتي من قوة وجهد ، عابد زاهد تائب مستغفر ، فهذا على النهج الاقوم والسبيل الاحكم . وهو عنصر تلك الطائفة الكريمة التي وصفها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : « لا تَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلى ذَلِكَ..» (٢).

وصنف اهل ضلال وعتو وكبر ، واصحاب فساد واشر وبطر ، كفروا بالله وجحدوا آياته وكذبوا رسله ، ونهجوا لانفسهم سبلا زينها الهوى وموهها الشيطان ، فهم اهل الفساد في الارض : «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (٣) ... «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ؟!»(٤)

وصنف ثالث ، نسب نفسه على اهل الاسلام ، ولكنه اخذ الامر مأخذ الهزل ، وسلك به مسلك الخبث والغش ، فلا هو حزم امره فكان في صف اهل الايمان في صدق عقيدته والتزامه بأمر الله وسنة رسوله ونصرة دينه ، ولا هو جاهر بالكفر الصريح ، بل سلك سبيلا ملتوية عرجاء ، ونظر بعين موبوءة حولاء ، فهو مدخول العقيدة ساقط العمل ضالع في خيانته للاسلام واهله يلبس عليهم امره ويهدم بنيانهم وهو متستر بثيابهم متسميا بأسمائهم ، فهذا من المذبذبين المتحيرين ، حسبهم على هذا الفساد والاعوجاج ما أعده الله لهم من العذاب : «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً»(٥) والناس لا بد لاحقون بأحد هذه الاصناف كل حسب عقيدته وعمله .

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣

(٢) أخرجه البخاري في ٦١ كتاب المناقب : ٨ ، وانظر اللؤلؤ والمرجان : ج ٢ : ٢٦٣.

(٣) سورة البقرة : ٧ (٤) سورة القصص : ٥٠ (٥) سورة النساء : ١٤٥

وما نعلم ضررا اصاب الامة الاسلامية اشد مما جاءها من قبل هـــذا الصنف الثالث ـ صنف المنافقين ومرضى القلوب ـ المدخولين في عقيدتهم · وانما اوتيت من قبل هؤلاء لما لبسوا عليها امرهم فاستخفوا في ثيابها وكادوها من قريب ، وقد غفلت عنهم وهم ينسلخون من ثوب الاسلام في تمويههـــم وتلونهم ، ولم تفطن الا وهم ينسلخون بها عن دينها حين آل اليهم امرها وغلبوا على شأنها ··· يتم كل ذلك وهم يتسمون بالاسلام ، ويسلكون مسلك اسلافهم حذو النعل بالنعل : «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْـــنُ مُصْلِحُونَ ، إِلاَّ أَنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ**»(١) ·

وقد قضت حكمة الله تعالى ان تكون هذه الفئة دملا في جسم هذه الامة لم تصف منه حتى تلك الفترة الاولى من حياتها التي شهدت نزول الوحـــي وتربية النبوة · وكلما استفحل امر هؤلاء واشتد شأنهم كلما انحرفوا بهـذه الامة عن منهجها القويم وطريقها المستقيم ··· وهم وان اختلفوا في مناهجهم واساليبهم وطرائقهم في حرب الاسلام وأهله والشغب عليه ، فان الذي يجمعهم هو تسميهم باسم الاسلام واظهارهم انهم ـ على ما هم عليه من الدخل والنفاق ـ انما يجتهدون للاصلاح ويعملون للحق !!

وقد تعرضت المجتمعات الاسلامية للعديد من الهزات في الداخل والخارج تركت اثرها وميسمها واضحا خلال تاريخها المتطاول · وكان لذلك كله اثره في ابعادها عن النبع الاصيل لدينها القويم ، او ارجاعها اليه في مد وجزر دائبين ·

ولعل اشد ما تعرضت له هذه الامة هو وقوعها تحت السيطرة المباشرة للامم المسيحية التي حكمتها بنظم مخالفة للشرائع والنظم الاسلامية ، وفرضت عليها انماطا من الحياة غير التي يصنعها الاسلام ويرضاها لاهله · ولعـــل اخطر ما في هذا الامر واشده ، انه خضع لمخطط منظم دقيق يهدف الى محاربة الاسلام وسلخ المسلمين عن اسلامهم في كل مجال من مجالات الحياة · فقـد تم ابعاد الانظمة الاسلامية عن الحكم والسياسة وادخلت تراتيب ونظم غيـر اسلامية ، وتم ذلك كله في نطاق ما عرف بفصل الدين عن الدولة · ثم ابعدوه عن التأثير في مناهج التربية والتعليم ، فاصبح ـ بدلا من ان يكون روحهـــا

---

(١) سورة البقرة : ١١ ، ١٢

اثر · وانحصر امر انظمته في دائرة القوانين المختصة بالاحوال الشخصية الذي يصبغها بصبغته ـ مجرد مادة تدرس في طريقة باردة لا فاعلية لها ولا التي لم تسلم كلها لتشريعاته فنازعتها القوانين الوضعية في كثير من بـــلاد الاسلام ، واقتحمتها عليها ـ بعد استقلال هذه البلاد ـ بطريقة لم يجرؤ عليها المستعمرون من قبل · وانحصر الامر في اطار العبادات التي نازعتهـــا انماط الحياة واساليبها ، حتى كاد ان يتلاشى مفعولها المطلوب ، واصبحت في غالب الاحيان مظهرا لذلك الحديث الشريف «يَأتِي زَمانٌ عَلىٰ أُمَّتِي يَكُونُ الصَابِرُ فِيهِم عَلىٰ دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلىٰ الجَمْرِ»(١) · مثل حال الصائم الذي يمضي يومه ممسكا عن الطعام والشراب ، ولكن تلاحقه صور التبرج الفاحش حيث اتجه ويمـــلأ سمعه البذاء والهجر من كل جانب · واصبحت المساجد في واقعها عبارة عن واحة صغيرة لا يتجاوزها المرء حتى تستلمه اجواء مردية مهلكة تكتنفه بالسوء والاذى من كل ناحية · ويتم هذا كله في ديار الاسلام وبين مسلمين يتسـمون بهذا الاسم ·· فتتبرج الفتاة والمرأة وكل واحدة منهما تحسب نفسها مسلمة ولا تقبل ان ينزع عنها احد هذا الوصف · ويهذي الرجل والفتى بكل فكر سقيـــم مدخول يفضي بصاحبه الى كفر صريح ، وكل واحد منهما يحسب نفسه مسلما ، ولا يقبل ان ينزع عنه وصف الاسلام ، ثم هم يرتكبون مختلف صور المعاصي ـ رجالا ونساء ـ بلا تأثم ولا تحرج ولا مسارعة الى التوبة · ويحسبون انفسهم مع ذلك مسلمين ·

وكما أن دين الله يسر ، وان رحمته سبقت غضبه ، فانه ـسبحانه ـ يغار على محارمه ولا يحب ان يشرك به احد في عمل ، ولا ان يستهزأ بدينه وآياته على اي صورة من صور الاستهزاء ·

وكذلك ، فإنه لا فلاح لهذه الامة حتى تصفو في بنائها من عبث كل هازل وهازلة · وحتى يكون التزام اهلها بدينهم وقيامهم عليه هو قيام أهل الجـــد والصدق والاخلاص ، وليس قيام المداهنة والهوى والكسـل · ولن يصلح أمرها حتى يكون الغالب عليها هو سمت التقوى والصلاح اللذين ينبنيان على عقيدة صحيحة وعمل صالح ، ورقابة دائمة لله سبحانه وتعالى ·

---

(١) رواه الترمذي عن انس بسند صحيح ·

ولامر ما اخذ التنبيه على دور المنافقين وخطرهم وفضح اساليبهم ووسائلهم حيزا غير قليل من كتاب الله سبحانه وتعالى ، وفي سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهديه ٠

وانا ـ في هذه الفصول ـ وفي اطار النصيحة لنفسي وامتي ، سأحاول بيان ملامح فئة المنافقين في اطارها التاريخي وكما نبه عليها وحذر منها القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم ، وانما يكون هلاك المرء في كثير من الاحيان عن غفلة غالبة او سهو محض ، حتى يتنبه غافل ، ويتذكر ساه فيصلح المرء من نفسه ما افسدته الغفلة والسهو ، او جر اليه الحيرة والجهل ٠ والعاقل من وعظ بغيره ٠٠٠ «**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**» (١)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

وكتبه /عمرو خليفة النامي
٢١ جمادى الاخرة/١٣٩٤
١٩٧٤/٧/١٢

---

(١) سورة لقمان : ٢٢

الفصل الاول

المشكلة والمنهج

كلمة في المشكلة والمنهج

قد يستغرب القارىء ظهور مثل هذا البحث في هذا الموضوع ، فهو يبدو لاول وهلة موضوعا واضحا لا يحتاج ان يفرد له بحث خاص · ثم هو في ظاهرة ادخل ما يكون في قضية«الدين» ، و «علاقة الانسان بربه» وهما امران يعرض الناس اليوم عن الخوض فيهما · فالاحتكام الى الصيغ الشرعية الدينية امر يتجنبه الناس اليوم مدفوعين بدافعين متمايزين : فهناك من يتجنبه تورعا ، وهو يتحرج من استخدام هذه الصيغ الشرعية الدينية خشية ان يرمي امرءا مسلما بما هو ليس فيه فيلحقه الاثم لذلك ·

وهناك قسم اخر من الناس ـ وهم الاكثر ـ قد نبذوا وراءهم هذه الصيغ الشرعية فلم يعد لها في مفاهيمهم غير صدى غائم مشوش ، فهم يستخدمونها ـ عندما يفعلون ـ في غير مواضعها ، ويلبسونها غير اهلها ، واستخدامهم لها لا يخضع الا لمدلولاتها اللغوية العامية المندرجة على ألسنة العوام بظلالها العامة المائعة ·

وهذا الموقف يشير الى ظاهرتين خطيرتين في التكوين الذهني لمجتمعنا الاسلامي المعاصر · فالقسم الاول من الناس · الذين يتحرجون من استخدام الصيغ الشرعية ويترددون في اطلاقها والاحتكام اليها والانطلاق من موحياتها انما جاءهم ذلك التردد والاحجام من قبل غيمومة هذه الاصطلاحات والتصورات في اذهانهم · وامر الدين والعقيدة ينبغي ان ينتفي عنه اللبس والغموض ، وينبغي ان يكون واضحا لدى اصحابه اشد ما يكون الوضوح حتى تكون مواقفهم تبعا لذلك محددة واضحة ، وان تكون تحركاتهم تجاه الصراع المتصل في البناء الاجتماعي المتجدد ، صريحة متميزة لتنفي الزائف وتبقي الاصيل ، ولتعتمد الصحيح وتنفي الدخيل ·

ومعروف ان قوة الموقف وصراحته واندفاعه ترتبط ارتباطا اصيلا بوضوح الدوافع الاساسية لهذا الموقف ·· فلا نطمع مثلا من شخص ان يحارب عملا او فكرا او واقعا ، لايجزم هو بكونه منكرا او فسادا · او ان يحارب بدعة لا يعلم هو انها كفر او الحاد ·· والتنبيه الى هذه الظاهرة وخطرها امر واجب·فهي ظاهرة تجسم تميعا واختلاطا في الفهم لدى المسلمين وتذبذبا في التصور عندهم ، ولا يمكن ان ترد بحال من الاحوال الى التحرج

والورع ، بل إن هذا التفسير نفسه لهذا الاتجاه على هذه الصورة ما هـو في الواقع الا انعكاس لذلك الانحراف والتشويش ٠

والظاهرة الثانية : تعكس ذلك الجهل بالتصورات والمفاهيم الاسلامية وتجسم الاستهتار الواضح بقيم هذا الدين ومثله ، والاعراض التام عـن توجيهاته وتعليماته ، حتى ان اختلاط المفاهيم لدى هذه الفئة قد يصل احيانا الى الوقوع في اخطاء فادحة فاحشة ، فيطلق اسم الكفر والنفاق مثلا على مـن صحّ اسلامهم واستقامت عقيدتهم ، ويستخدم لفظ الشهادة والاستشهاد لمن لم ينطق بكلمة الاسلام فضلا عن ان يكون قد مات في سبيل الله ، وفي سبيل ان تكون كلمة الله هي العليا ٠٠٠ ويستعمل الوصف بالايمان والعقائدية للملاحـدة والمشركين والمنكرين لله تعالى المحاربين لدينه ورسله وانبيائه !!

ويكاد الباحث المتأمل ان ينتهي في تشخيصه لهاتين الظاهرتين الـى ان السبب الحقيقي الكامن وراء هذه الظواهر هو الجهل بحقائق اصطلاحـات الاسلام وموحياتها الشرعية والدينية ٠ ولا نعرف دواء للجهل غير العـلم ٠ ولذلك فان هذه المحاولة تجد ـ في رأيي على الاقل ـ مبررا حقيقيا وملحا للظهور ولعلها تكون مقدمة لدراسات تالية تسهم في تأصيل المفاهيم الاسلامية وتأكيـد مصطلحاتها الشرعية والدينية وترسيخها ، واظهار الشخصية الاسلامية المتميزة التي لن تتأكد ولن تصبح مؤثرة وفعالة حتى تحقق لنفسها تميزها الذي يستند في حقائقه كلها الى عقيدتها الاسلامية وموروثاتها الاصيلة اولا ٠

ونحن في تناولنا لهذا البحث مجددا لا نستطيع ان نتجاهل اثار الصراع المتصل المرير الناتج عن الخلافات التقليدية بين المسلمين في تاريخهم الطويل والدور الذي لعبه الخلاف المذهبي الناتج عن اختلاف المفاهيم المتصلـة بالاصطلاحات الشرعية والدينية واحكامهما ، بل نقدم على بحث هذا الموضوع متمثلين بوضوح تلك الاثار ، ونحن نشعر لذلك ان استيعاب التجربة التاريخية للمسلمين في ماضيهم كفيلة بان تجنبنا الوقوع في تلك المزالق القديمة ، وان تحدد لنا ـ بقدر الامكان ـ منهجا سليما في علاج مثل هذا الموضوع ٠

وقد نتساءل هنا ، الى أي مدى يستطيع الباحث المعاصر أن يسلم مـن مؤثرات ذلك الصراع القديم ، وهل يمكن أن تتوفر له الوسائل الموضوعية لمنهج سليم يعالج من خلاله الموضوعات الاسلامية في العقائد والأحكام ٠

وحتى يكون تصورنا للمشكلة في اطارها التاريخي واضحا ينبغي ان نلم الماما سريعا بملامح ذلك التمزق الذي تعرض له المجتمع الاسلامي خلال تاريخه ، فليس كل خلاف او صراع يمثل ظاهرة مرضية ، بل انه ـ على خلاف ذلك ـ قد يعني ثراء ونموا في مجالاته المحمودة · ولذلك فتصورنا لمسالة الخلاف بين المسلمين تنحصر في اطارين : الاطار الديني ، والاطار الفقهي · وبقدر ما يبدو امر الخلاف في مجال الفروع هينا يسيرا بقدر ما يبدو شائكا ودقيقا وحساسا ايضا في مجالات العقيدة واصول الدين ·

ونؤخر الحديث هنا قليلا فيما يتعلق بامر العقائد لنلم الماما عابرا بقضية الخلاف في مجالات الاحكام في الفقه الاسلامي الذي اتسعت مذاهبه ما بين حي ومندثر بصورة يقل نظيرها لدى الامم الاخرى وفي الاديان الاخرى ·

وانما جاء الخلاف في امور الاحكام بسبب اختلاف الرواية غالبا ، وقد كان مرجع الجميع في استخراج الاحكام الى القرآن والى السنة · ولم يختلف المسلمون في رجوعهم الى هذا الاصل الذي حدده الله سبحانه وتعالى في قوله في هذه الآية المحكمة : «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا**»(١) ·

وعندما تتأكد النية في الرد الى الله ، اي الى كتاب الله ، والى الرسول، اي الى سنته صلى الله عليه وسلم ، ثم يقع الخلاف والتنازع لسبب الخلاف على الرواية او الخلاف في الفهم والاستنباط فذلك واسع في الدين ·«**فَأَهْلُ الإِيمَانِ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي بَعْضِ الأَحْكَامِ وَلا يَخْرُجُونَ بِذَلِكَ عَنِ الإِيمَانِ · وَقَدْ تَنَازَعَ الصَّحَابَةُ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَسَائِلِ الأَحْكَامِ وَهُمْ سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَكْمَلُ الأُمَّةِ إِيمَاناً**» (١) · وان اهل الايمان ـ كما يقول ابن القيم : «**لا يُخْرِجُهُمْ تَنَازُعُهُمْ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الأَحْكَامِ عَنْ حَقِيقَةِ الإِيمَانِ إِذَا رَدُّوا مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ كَمَا شَرَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**»(٢) · ومعنى الرد الى الله : : الرد الى كتابه والرد الى رسوله هو الرد اليه نفسه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حياته ، والى سنته بعد وفاته ·

---

(١) النساء : ٥٩

(١) ابن القيم : اعلام الموقعين عن رب العالمين ١ : ٤٩

(٢) المصدر السابق

فلما انتشر الاسلام واتسعت داره وتفرق الصحابة في الامصار ووقع في كل ناحية ناس منهم اختلفت الرواية تبعا لاختلاف المصادر ، وشهود بعض الصحابة ما غاب عنه البعض الاخر ، وحمل بعضهم ما لم يحمله غيره · ومعروف انه حتى وفاة عمر رضي الله عنه ظل سادات الصحابة مرتبطين بمدينة الرسول عليه السلام ، لم يتفرقوا ولم تتوزعهم الامصار · فقد اتضح لهم حتى ذلك العهد غالب ما تدور عليه احكام الاسلام وهم حاضرون في مدينة الرسول عليه السلام، حكم بها الخليفتان ابو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وشهدت هذه الاحكام اجماع الرواية والرأي كليهما ·

ولا نعرف ان هذا الامر ـ اعني الاختلاف في الرواية ـ كان يمثل مشكلة ذات بال حتى يحتاط لها المسلمون انذاك · ولو بلغ بها الامر شيئا من ذلك لظهرت بعض التدابير التي تحول دون استفحالها كما حدث في شأن كتابة القرآن في المصاحف واعتماد المصحف الجامع وحده ، والتشدد في قبول الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم الا بالشهود واليمين ··· بل نحن نجد ان مثل هذه التدبيرات في امور الاحكام والفقه لا تستأثر بتأييد علماء الاسلام حتى فترة متأخرة ·

فعندما اراد ابو جعفر المنصور ان يحمل الناس على موطأ الامام مالك وحده ، منعه الامام مالك من ذلك وقال : « **يا أمير المؤمنين ، لا تفعل فان الناس قد سبقت لهم اقاويل ، وسمعوا احاديث ، ورووا روايات ، واخذ كل قوم بما سبق اليهم ، وما عملوا به ، ودانوا له من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغيرهم ، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم**»(١) ·

ومن هذا المنطلق اتسع العذر امام المجتهد المخطىء في الاحكام خصوصا، شريطةان يكون قد استفرغ جهده واتخذ الوسائل المطلوبة للاجتهاد · وكان الخلاف الواقع في امور الاحكام والعبادات ناتجا عن اختلاف الرواية في الغالب فهنا يكون العذر في الاختلاف واضحا ، لان المعتمد والمرجع هو ما بلغه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فربما مضى بعض الصحابة في حكم على امر لم يبلغهم فيه حكم للرسول صلى الله عليه وسلم فاجتهدوا فيه رأيهم

---

(١) أمين الخولي : مالك بن انس : ٥٥٤ وانظر المراجع هناك .

وعلمه كما حكم فيه الرسول عليه السلام عند غيرهم من الصحابة ·· فنشأ اختلاف الاحكام وتعدد المذاهب من هذا السبيل وما جر اليه ·

وقد تهيأ اليوم من وسائل العلم والاتصال ما يمكن المسلمين من تجاوز تلك الحواجز القديمة كلها ـ فيمكن اليوم بنوع من الجهد المستقر المنظم ، والعمل الدائب المتصل ، تحديد كل ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم من كل الطرق والوجوه ، وجمعه كله في صعيد واحد فيتم رد كل الاقوال في الفقه الاسلامي الى اصولها الصحيحة من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك اسباب الخلاف التي ادى اليها اتباع الرأي دون السنة ، وتقليد الرجال حال غياب النص عند اوائل هذه الامة من اصحاب المذاهب · وهو امر ـ رغم صعوبته ـ يسهل التوصل اليه عند توافر الجهود وتوافر النية ، ونبذ التعصب للرجال · ولا نعتقد ان في المسلمين من يترك سنة النبي عليه السلام الى قول عالم مهما علا كعبه وارتفعت درجته ···

اما اذا كان الخلاف واردا لورود اكثر من حكم او فعل للرسول عليه السلام فيامر بعينه ، وصح عنه النقل في ذلك ، ولم يعلم الناسخ والمنسوخ فيهما ، فذلك من التيسير الذي هو طابع هذه الشريعة الحنيفية السمحة ، وهو امر محمود لا يبعث على الانزعاج بل يدعو الى الاعتزاز ·

ونحن في هذا الباب نحب ان ننبه الى مسائل هامة نرجو ان يكون الامر فيها واضحا لدى المهتمين من المسلمين ، حتى يكون اخذها في الاعتبار مفيدا فيما ندعو اليه من نبذ الخلاف والتخلص من اثاره بالعودة الى كتاب الله وسنته وما اجتمع عليه المسلمون ··

● الاولى : ان الحفاظ على رصيد الفقه الاسلامي المتمثل في مذاهبه المختلفة امر واجب لا يسع التفريط فيه بأي حال من الاحوال · والذي ينبغي ان تتجه اليه الدعوة للتقليل من حدة الخلاف المذهبي هو عدم تقديم اراء المذاهب على ما صح من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم · اما ما اختلفت فيه الاراء ، ففقهاء الاسلام مؤتمنون ينبغي ان يحفظ لهم مكانهم وقدرهم ونصيحتهم للامة واجتهادهم لها · وان ترك اجتهاداتهم لغيرها لا تنبغي لغير من بلغ درجة الاجتهاد في المذهب نفسه · واما العامة من المسلمين ممن لم تتوفر لهم اسباب الاجتهاد فسبيلهم تقليد العلماء المجتهدين في مذاهبهم ·

● الثانية : الا يتخذ منطلق العودة الى السنة سببا وذريعة لنبذ الاحكام الثابتة الصحيحة ، كما يحلو لبعض المستخفين بأحكام الاسلام من تتبع الرخص في المذاهب المختلفة وما يوافق الاهواء ... وانما الفيصل في هذا الامر هو تقوى الله سبحانه وتعالى ، وتحري اوامره والاخذ بعزائم الشرع ، وليس العمل على تمييع احكام الاسلام واوامر الشريعة .

● الثالثة : ان يكون الرجوع الى سنة الرسول حيث كانت وممن جاء ممن لا مطعن في عدالتهم ونقلهم ، هدفا اساسيا يتوخاه المسلم ، لا ان تتخذ هذه الدعوة ستارا لنصرة مذهب بعينه وحمل الناس عليه ، وذلك باظهار ما اعتمده هذا المذهب من السنة وعدم اظهار ما جاء من السنة على خلافه مثلا ..

وهكذا يتبين الدارس ان مجال الخلاف في الاحكام او في الفروع ـ كما هو معروف في الاصطلاح ـ بين المسلمين واسع ، وان الخطر فيه هين يمكن تداركه والاتجاه به الى فائدة الامة وخيرها . بينما يكمن الخطر كله في الخلاف في امر العقيدة ، أو ما تعارف العلماء على تسميته بأصول الدين . فالخلاف في هذا اشد ، ولم يعذر السابقون بعضهم بعضا في هذا الامر وتشددوا فيه غاية التشدد مما ادى الى سفك الدماء وتنافر القلوب وتفرق الامة.ولعمري ينبغي ان يكون الامر كذلك في شأن العقيدة ، ولذلك فان تمييع المفاهيم حولها شيء بالغ الخطر عظيم الضرر . ومجاوزة الحد والتطرف في استعمالها واستخدامها في غير موضعها الصحيح يؤدي كذلك الى أوخم العواقب وأسوأ الاثار .

ولذلك فنحن سنحاول في هذا البحث ان نسلك منهجا يجنبنا ـ بقدر الامكان ـ مزالق الخطرين ، خطر تمييع هذه المفاهيم والاصطلاحات وخطر التطرف ومجاوزة الحد في استعمالها وتناولها وتقييم الاراء المختلفة حولها .

والمنهج الذي سنحاول التزامه في هذا البحث هو الارتباط رأسا بالقرآن وهو النص الاساسي الذي يستند له بناء العقيدة الاسلامية ، ثم بالبيان الصحيح الصادق لهذا النص القرآني ، وهو الصحيح من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرض هذه النصوص في اطار السيرة وأحداثها ، وتجنب التأويل الملتوي الذي يحاول صرف النص لتأييد رأي معين أو وجهة نظر معينة مسبقة ، وهذا يقتضي أن نعرض إعراضا تاما عن كل التصورات السابقة التي تكونت في اطار ثقافات واحداث معينة مرتبطة بعصور معينة وتغيرات اجتماعية وسياسية معينة .

وهكذا فان ما نشترطه على انفسنا في هذا المنهج هو الارتباط المباشر بالنص القرآني وسنة الرسول عليه السلام وأحداث السيرة ، وعدم التحكم على هذه النصوص بفكرة مسبقة ، بل تكوين الحكم من خلال هديها وتوجيهها ٠

ونحن نرجو ان يكون هذا المسلك منطلقا صالحا لعلاج مثل هذه القضايا الحيوية الهامة ٠٠ خصوصا وان اختلاف الظروف الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وسائر النشاطات الحضارية بين عصرنا هذا وما سبقه من العصور اختلاف ظاهر بين في كثير من المجالات ٠٠٠ والاسلام يلزمنا بالانقياد لاحكام الكتاب والسنة وتكييف حياتنا على ضوء من هديها وتوجيهها، وليس الحياة في اطار ثقافات وانماط حياتية معينة لعصر معين او لمجموعات بشرية معينة ٠

والذي يعطيه الاسلام هو تصورات صحيحة ثابتة ـ تستند الى الحق المطلق ـ عن الله والكون والانسان ، ونظما وتشريعات منبثقة عن هذه التصورات تكون نبراسا هاديا للانسان ، ليعيش بذلك كله مسلما كما هداه الله في كل عصر وكل مصر ٠

أما مجال الخلاف الثاني فكان في مسائل العقيدة او «اصول الدين» وهذه كانت تدور في أغلبها حول قضايا الالوهية وخصائصها مثل التوحيد والعدل والقضاء والقدر والصفات وغيرها ، وقضية العبودية التي تتناول مسالة العلاقة بين الله والانسان ، ثم احكام العلاقات بين الناس كما تحددها مواقعهم في اطار اعتقاداتهم حسب التصور الاسلامي ، الى ما يرتبط بهذه القضايا الكلية من قضايا جزئية متممة او موضحة ٠٠٠ ولسنا هنا في حاجة الى الخوض في هذا الميدان ٠ اما بحثنا هنا فمداره حول جزئية محددة في اطار موضوع العلاقة بين الله والانسان ، واحكام الناس كل حسب عقيدته وعمله ، وعلاقتهم فيما بينهم كما يحددها التصور الاسلامي الصحيح المستند الى الكتاب والسنة ، وهو مبحث ينبغي ان يصل في نتيجته الى تحديد ملامح النماذج الانسانية المختلفة مستندا الى اعمالها وعقائدها ثم هو يحدد تبعا لذلك احكام علائق هذه النماذج الانسانية فيما بين بعضها البعض ٠٠٠

والذي نقصده في اطار هذا البحث هو جزئية واحدة او مشكلة واحدة تكون هي مدار هذه الدراسة ، وهي قضية «النفاق والمنافقين» ٠

ما هو النفاق ؟ ومن هو المنافق ؟ ·· هل هو نموذج متميز ثابت محـدد المعالم ؟ ام هو نتاج مواصفات تخضع للزيادة والنقصان فيكون الشخص منافقا في حال دون الاخرى · ثم هل هو نموذج ارتبط وجوده بفترة نزول الوحي في المرحلة المدنية ثم انقطع أمره ، أم هو نموذج متكرر في تاريخ البشرية ؟ ومـا هي المواصفات أو الصفات التي تجعل الشخص منافقا عند الاتصاف بها ؟ ثم ما هي أحكام المنافق في الدنيا وما هو مصيره في الإخرة ؟ وما هي أخطـار النفاق كظاهرة اجتماعية في المجتمع الاسلامي ، وهل هناك من وسائل لمواجهة هذه الظاهرة وعلاجها ؟ وغير ذلك من المسائل المتصلة بالموضوع من جوانبـه التي نعتقد انه في مقدورنا تناولها بما تتيحه لنا المصادر المحدودة الموجودة بين أيدينـا ·

الفصل الثاني

أَصْـــل الإِصْطِلاحْ

أصل الاصطلاح

و «النفاق» مصدر من مادة «نفق» · والمادة عربية بلا شك ، وقد ذهب بعض الباحثين المعاصرين من غير العرب الى ارجاع المصطلح الى لغات غير العربية ، فهناك من اقترح ان يكون اصل المادة من الحبشية(١) · وهو تمحك لا ضرورة له ، ولا يحوجنا اليه البحث · واغرب منه تفسير اخر يرجع اصل الاصطلاح الى مادة «الانفاق» ·· انفق ·· ويذهب الى ان المنافقين هم فئة كانت تقوم بالانفاق على المسلمين في الغزوات ويتخلفون عن الغزو(٢) !! وهذا تاويل شديد الضعف ، لا نستطيع ان نجد له مستندا من اي وجه ، ولا يحتاج المرء الى مناقشته · فأصل المادتين مختلف في اللغة : اصل الانفاق من انفق ، ينفق ، نفقة وانفاقا · بينما اصل النفاق من نافق ، ينافق ، نفاقا · والفرق بين المادتين بعيد ، ويستغرب الانسان وقوع مثل هذا الخلط في مثل هذه المادة خصوصا وان اصل هذه المادة في اللغة العربية موجود وواضح ·

اما محاولة ارجاع الاصطلاح الى نظيره في لغة الاحباش فلا نعرف له داعيا غير هذا التمحك الذي يحاول ان يرجع الدين الاسلامي الى اصول مسيحية او يهودية ··· وقد ذكر العلماء المسلمون عددا من المفردات اللغوية التي وقعت في القرآن مما استجلبته اللغة العربية من اللغات المجاورة ، ولم يذكروا النفاق في عداد هذه الكلمات(٣) ·

واصل الاصطلاح ـ كما يورده علماء العربية ـ من نافقاء اليربوع ، وهو الجحر الذي يخرج منه اذا طلب ، لان له اجحرة يدخل بعضها عند الطلب ، ثم يراوغ الذي يريد صيده فيخرج من جحر اخر قد اعده(٤) ، «**فلما كان المُسِرُّ للكفر المُظْهِرُ للايمان يبطن غير ما يظهر سُمِّيَ منافقا**»(٥) ولما كان النفاق في حقيقته اخفاء الكفر باطنا واظهار الاسلام خوفا وتعوذا من القتل ، شابه في صورته ذلك الخداع الفطري الذي يتخذه اليربوع لانجاء نفسه من مباغتات الهلاك ،

---

(١) Sh.E.I., Munafikún

(٢) R.B. Serjeant; Religion in the M.E. 11,10

(٣) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ·

(٤) انظر القرطبي : التفسير : ج ١ : ١٩٥ ، الجصاص : احكام القرآن ج ١ ص٢٦

(٥) ابن حزم : الاحكام في اصول الاحكام ج ٥ : ٦٠٥

وصلح ان يتخذ هذا الوصف اسما مميزا لهذه الفئة من الناس التي تمايزت عن المشركين باظهارها الاسلام وعن المسلمين باخفائها الشرك واسرارها له ٠

قال ابن جريج : « المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ٠ ومشهده مغيبه»(١) ٠ فاستعاره صفة تلك الدابة المخادعة اسما لمن هكذا وصفه من الناس في المدلول الشرعي امر طبيعي لا يحوجنا الى البحث عن مصدر اخر للاصطلاح خارج اللغة العربية ٠ ويعزز هذا ان في اشتقاق المادة ما يفيد معنى الكن والستر : فالنفق محركة سرب في الارض له مخلص الى مكان، وانتفق : دخله ٠٠٠ وفي المثل : ضل دريص نفقه(٢) ٠ وقال في القاموس : نافق اليربوع : اخذ في نافقائه ٠ ونافق في الدين : ستر كفره واظهر ايمانه» (٣) ٠

وكثيرا ما تنحت مثل هذه الاصطلاحات في اللغة على هذا النحو الذي يستعير الصفة من اصل حسي ملموس في عالم الاحياء للتعبير عن فكرة معنوية مجردة كاتخاذ اسم الحكمة من حكمة الفرس ، والعقل من عقال البعير ٠ وقد كان كذلك «لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود اذا نفرت»(٤) ٠ ويستطيع الباحث ان يضاعف من هذه الامثلة والكلمات ٠ فكذلك الامر في اصطلاح «النفاق» الذي نستطيع ان نرده مطمئنين الى هذا الاصل الذي تذكره مصادر اللغة العربية دون حاجة الى ما وراءه في اللغات الاخرى ٠٠٠ اما محاولة ارجاعه الى معنى الانفاق فلا نجد لذلك ما يدعمه لا لغة ولا معنى ولذلك فلا حاجة الى اخذ ذلك في الاعتبار ٠

ولا يعرف ان هذا الاصطلاح قد تداولته اللغة العربية قبل نزول الوحي به ٠ فهو على هذا استعمال شرعي اسلامي مبتكر جاء للدلالة على هذه الفئة من الناس التي تظهر غير ما تبطن وتسر غير ما تعلن ٠

وقد شاع استعمال الاصطلاح في اللغة العربية بعد ذلك فتخطى مدلوله الشرعي الديني الى كل موقف يظهر فيه صاحبه غير ما يبطن ، وهو ما عليه

---

(١) ابن كثير : التفسير ١/٤٧ ، الطبري : تفسير ١ : ٩٠
(٢) الفيروز ابادي : القاموس المحيط : مادة (نفق)
(٣) المصدر السابق
(٤) الماوردي : ادب الدنيا والدين : ص ٤ ، ابوحيان التوحيدي : المقابسات ط٠ السندوي (١٩٢٩) : ص ٢٣٥

استعمال اللفظ الان · ومثل هذا الاستعمال لا يقره الاسلام : فهذه الالفاظ لها عنده مدلولات شرعية تترتب عنها احكام خاصة · واستعمال اللفظ خارج مدلوله الشرعي سيؤدي اما الى ظلم من اطلق عليهم اذا نالتهم احكامه او الى تعطيل الاثر العملي للاحكام الشرعية التي تقتضيها هذه الاسماء بصورة يتدرج معها الامر الى تعطيل الاحكام الشرعية كلية ··

وقد حرص القرآن حرصا ظاهرا على بيان حقيقة هذا الاصطلاح الجديد وايضاح مدلوله ·ورسم بدقة متناهية في عدد من السور ملامح هذه الفئة من الناس الذين نجم امرهم في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم اليها · «وانما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ؟ لان مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه ، من الناس (في مكة) من يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن مؤمن»(١) · وكذلك لم تتبين ملامح النفاق كظاهرة في اول الهجرة «اذ لم يكن اذ ذاك نفاق ايضا لانه لم يكن للمسلمين شوكة تخاف ··· فلما كانت وقعة بدر واعز الله الاسلامَ واظهر كلمته ، قال عبدالله بن ابي : هذا امر قد توجه ، فأظهر الدخول في الاسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته ، واخرون من اهل الكتاب · فمن ثم وجد النفاق في اهل المدينة ومن حولها من الاعراب (٢) ·

واول ما نزل من القرآن في صفة المنافقين في سورة البقرة ، وهي اول ما نزل من القرآن بالمدينة ، نزلت فيهم بضع عشرة آية(٣) فيها وصف لهم وبيان لبعض احوالهم واخلاقهم ، وضرب الله الامثال لهم ، ولكن لم ترد تسميتهم باسم النفاق في سسورة البقرة بل تحدثت الآيات عن صفاتهم واحوالهم باسهاب وبيان · واول ما جاء ذلك ـ اعني تسميتهم باسم النفاق ـ في سورة الانفال ، وهي السورة الثانية في ترتيب النزول في القرآن المدني · وقد وردت الاشارة الى المنافقين في الآية الكريمة التالية :

«إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ · وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»(٤) ثم تتابع استعمال هذا الاسم ومشتقاته في القرآن في الآيات التي عالجت هذه الظاهرة بعد ذلك(٥) ·

---

(١) ابن كثير : التفسير ١ : ٤٧ ، ابن تيمية : الايمان : ١١٩
(٢) المصدر السابق ! ابن كثير : تفسير : ١ : ٤٧
(٣) البقرة الايات ٨ ـ ٢٠
(٤) سورة الانفال : ٤٩
(٥) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم : ط· الشعب : ٧١٦ـ٧١٨

وقد كان نزول آية الانفال السابقة بعد غزوة بدر وتاريخ الغزوة هو (ليلة الجمعة ١٧ رمضان سنة ٢ هجرية) ، فنزول الآية كان بعد هذا التاريخ · فذلك اول ما سار هذا الاسم وعرف بين المسلمين كلفظ قرآني ذي مدلول شرعي وديني محدد ، ولا يبعد أن يكون اللفظ قد عرف بين المسلمين قبل ان ينزل به القرآن ، بل هذا هو الاقرب الى النظر · فقد جاء في السيرة «ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه يوم بدر : « **قد عرفتم ان رجالا من بني هاشم قد اخرجوا اكراها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم احدا من بني هاشم فلا يقتله**» · **وسمى ابا البختري بن هشام والعباس بن عبدالمطلب فقال ابو حنيفة رضي الله عنه : ايقتل اباؤنا وابناؤنا واخواننا وعشيرتنا ويترك العباس !؟ لئن لقيته لالجمنه السيف · فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر : «يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله ، دعني اضرب عنقه ـ يعني أبا حذيفة ـ بالسيف، فوالله لقد نافق**»(١) · ولعل هذا ان يكون اول نص يرد فيه استعمال هذا اللفظ ··· وعلى فرض صحة الرواية ، فلنا أن نستنتج ان مدلول النفاق في حق ابي حذيفة رضي الله تعالى عنه انما جاء من استشعار عمر رضي الله عنه لموادة ابي حذيفة آباءه وأبناءه وعشيرته من المشركين ، واستنكاره ان يستثنيَ الرسول عليه السلام أولئك النفر من بني هاشم من القتل حمية لذويه ··· وفرق بعيد بين ذويه من عتاة المشركين من أمثال أبيه عتبة وعمه شيبة وأخيه الوليد وغيرهم من بني عبد شمس وعشيرته ، وقد جاءوا مبارزين للرسول محاربين له ، وبين بني هاشم الذين خرجوا الى بدر كرها ، واستكرههم قومهم على الخروج ·· ولعل ذلك ـ أعني وصف أبي حذيفة بالنفاق ـ أن يكون قد جاءه ايضا من ظنه برسول الله عليه السلام موادة عمه العباس ومن ذكرهم من بني هاشم حمية لهم وأثرة ·· وهو من الظن السيء الذي لا يصح في حقه عليه السلام ، ولا يصح ان يسبق الى خلد ابي حذيفة رضي الله عنه · وانما حق الصفوة من جند الله ان تصفو مشاعرهم وتصوراتهم من كل هذه الاكدار · وان يرتفع تقييمهم لاوامر الرسول عليه السلام واعماله عن الدوافع والمقاييس الدنيا المشدودة الى الوشائج الارضية ، وهي فلتة تنبه لها ابو حذيفة رضي الله عنه فكان يقول : «**ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت**

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢:٤٥٩ ، السيرة الحلبية : ٢ : ٤١٤

يومئذ ، ولا أزال منها خائفا ، إلا أن تكفرها عني الشهادة · فقتل يوم اليمامة شهيدا»(١) ·

وفي النص السابق اطلق وصف النفاق على مهاجريمن السابقين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن بشأن كلمة قالها ، ولم يكن الاطلاق عاما · فكأنَّ الاصطلاح لم يكن تحدد لفئة معينة متميزة ـ ولكنه كان مترددا على الالسن في الاستعمال العام ، ولم يأخذ بعد صبغة الاصطـــلاح الديني الشرعي وهذا هو الظاهر ـ فان النفاق كظاهرة لم يكن عرف بعد ·

واذا راجعنا اقوال المفسرين في آية سورة الانفال :«إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ، فاننا سنجد حصيلة اقوال المفسرين ترجع الى ثلاثة اقوال(٢) :

الاول : وهو قول ابن عباس وقتادة : ان الذي قال ذلك هم المشركون من اهل مكة ، قالوه لما رأوا قلة المسلمين يوم بدر ·

الثاني : انهم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر · وهذا قـول ابن جريج · وقال عامر الشعبي : كان ناس من اهل مكة قد تكلموا بالاسـلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا : «غر هؤلاء دينهم» · والى هذا القول يرجع قول كل من مجاهد ومحمد بن اسحق وروى مثله معمر ·

الثالث : عن الحسن البصري انهم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر ، فسموا منافقين · وذكر الزمخشري(٣) انهم المنافقين في المدينة · وقد ورد في السيرة ما يؤيد ان هناك من المسلمين من تخلف عن هذه الغزوة ـ اعني غزوة بدر · ولكنه لا يعرف انهم وصفوا بالنفاق او ان تخلفهم كان عن شك او ريب ·

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ : ٤٥٩ اود ان اذكر القارىء الكريم انني استعملت طبعتي السيرة : طبعة محيي الدين عبدالحميد وطبعة السقا فحيث لم ترد الاشارة الى طبعة السقا وزملائه فالاشارة الى طبعـة محيـي الديـن عبد الحميد

(٢) ابن كثير : التفسير : ٢ : ٣١٨ ـ ٣١٩

(٣)الزمخشري : الكشاف : ٢ : ٢٢٨

فقد ذكر ابن اسحق «ان سعد بن معاذ قال للنبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر : «**يانبي الله (الا) نبني لك عريشا تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ، فان اعزنا الله واظهرنا على عدونا كان ذلك ما احببنا ، وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام ، يا نبي الله ، ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا انك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك** ...»(١) . وقد كان تخلف هؤلاء النفر من المسلمين الذين اشار اليهم سعد بن معاذ عن هذه الغزوة لما رأوه من عدم احتفال الرسول عليه السلام بها فقد قال صلى الله عليه وسلم حين دعاهم : «**هذه عير قريش فيها اموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها**» فانتدب ناس وثقل اخرون (اي لم يجيبوا) لظنهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يلق حربا . ولم يحتفل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بل قال : «**من كان ظهره حاضرا فليركب معنا . ولم ينتظر من كان ظهره غائبا عنه**»(٢) . وهكذا فتخلف من تخلف عن هذه الغزوة من المسلمين لم يكن عن تخاذل او تهاون او تقصير . ولذلك فنحن نسبعد ان يكون القول الذي جاء عن الحسن البصري في آية الانفال السابقة قد قصد الى من تخلف عن هذه الغزوة من المسلمين بالمدينة .ولعلهم ان يكونوا من تلك العناصر المترددة التي لم تسلمبعد ولم تجاهر الرسول عليه السلام بالحرب حين آواه قومهم من الانصار ، ولكنهم اتخذوا موقف المتفرج الذي وقف ينظر الى امر الصراع بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش وما سيؤول اليه في النهاية . فالوصف بالنفاق ومرض القلب في الآية منصرف اليهم ، وهم اولى الناس به .

وعلى هذا فنستطيع ان نقرر باطمئنان بأن الاشارة هنا بالنفاق ومرض القلب لا تنصرف الى المشركين من اهل مكة ، ولا الى من تخلف بالمدينة من المسلمين عن شهود غزوة بدر الكبرى ، ولكنها ترسم الملامح الاولية لهذه الفئة الجديدة التي سيكون لها شأن كبير في التأثير في الصراع الدائر بين الاسلام والشرك والحق والباطل . فئة المذبذبين المترددين ، الذين سنحاول في الفصول التالية عرض صورتهم المتكاملة بابعادها كلها كما جسمتها السيرة المعاصرة للوحي ، وكما رسمها القرآن الكريم ..

★ ★ ★

---

(١) السيرة الحلبية ٢/٣٩٤ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٤٥٢

(٢) السيرة الحلبية ٢ : ٣٧٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٤٤٠

الفصل الثالث

ظاهِرة النِفَاق في المدينة

ظاهرة النفاق في المدينة

قبل الدخول في تفصيلات الموضوع لا بد من تحديد مراكز القوة اولا في المدينة ـ مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لانها هي المسرح الذي ظهرت فيه الشخصيات الرئيسية التي سيتناولها هذا الفصل ٠

لقد كانت المدينة موطن قبيلتين اساسيتين من اصل جنوبي هما الاوس والخزرج ، وكان معهما وفي جوارهما مجموعات يهودية ٠ كان هذان الحيّان من الاوس والخزرج ومن دار في فلكهما يعيشان صراعا متصلا ، وكان هذا الصراع التقليدي بين الحيين فيما بينهما وبين جيرانهم من اليهود من العوامل الاساسية التي دفعت الكثير من كلا الجانبين الى التطلع الى وضع تتحقق فيه الغلبة لاحد الجانبين والاستقرار والامن ٠٠٠ وكانوا يتطلعون الى منقذ يحقق ذلك ٠ فقد ذكرت السيرة ان اليهود كانوا يستفتحون على اهل يثرب بنبي جديد يظهر فيهم «وكانوا اذا وقع بينهم وبينهم شيء من الشر قالوا لهم : سيبعث نبي قد اظل نقتلكم معه قتلة عاد وإرم »(١) ٠ وكان هذا التوعد من اليهود هو الذي نبه النفر السابقين من الانصار الى الايمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وتصديقه حتى لا تسبقهم اليه يهود (٢) ٠

وقد كان من الاهداف الاخرى التي لمحتها فراسة هؤلاء النفر من السابقين من الانصار ، ان ايمان اهل يثرب بالنبي صلى الله عليه وسلم واجتماعهم عليه سيضع نهاية لذلك الصراع الدائب والقتال المستمر بين الحيين من الاوس والخزرج ، وقالوا فيما قالوه بعد ان استجابوا لله وآمنوا به وصدقوا برسالته : « **يا رسولَ الله ، إنما كانت بُعَاث ، عامَ أوّل ، يومٌ من أيّامِنَا اقتتلنا به ونحن كذلك ، لا يكون لنا عليك اجتماع حتى نرجع الى غابرنا ـ لعل الله ان يصلح ذات بيننا ، وندعوهم الىٰ ما دعوتنا ، فعسى الله ان يجمعهم عليك ٠ فان اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعزّ منك**»(٣)

وقد كان اقبال اهل المدينة على الاسلام جيدا اذا ما قورن بالمعارضة الشديدة التي واجهته في مكة ، وبالتردد الواضح الذي لقيه من الجماعات

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٢٩٢ ، السيرة الحلبية : ٢/١٥٩
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٢٩٢
(٣) المصدر السابق : السيرة الحلبية ٢/١٥٩

العربية الاخرى التي كان يعرض عليها الرسول نفسه طوال عشر سنين مضنية من الدعوة المستمرة(١) · فقد رجع اولئك النفر الستة ممن اسلموا الى قومهم بالمدينة ، وذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم · ودعوهم الى الاسلام حتى فشى فيهم(٢) · وهكذا ومنذ ذلك الحين ظهرت قوة جديدة بالمدينة هي قوة المسلمين التي بدأت تنمو تديجيا وتأخذ خطا متميزا بتصوراته وقيادته ينازع ويزاحم مراكز القوة القديمة · وقد اكدت بيعتا العقبة الاولى والثانية هـــذه الحقيقة واعطتها واقعا ملموسا ، ثم كانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة واستقراره بها عنوانا لتمكن هذه القوة الجديدة وتمركزها ·

ويتبين لنا من العرض المقتضب السريع ان القوى الموجودة بالمدينـــة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم اليها هي :

اولا : الجماعة الاسلامية متمثلة في مجموع المهاجرين والانصار ·

ثانيا : العناصر المدنية التي لم تسلم بعد ·

ثالثا : اليهود في تجمعاتهم بالمدينة وخارجها ·

ونظرة في الوثيقة التي ابرمها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد مجيئه واستقراره في المدينة ، بينه وبين اهل المدينة تبين بوضوح مركز هذه القوى ، وتضع اشارات واضحة على الاتجاه التي ستتخذه مجريات الصراع والزعامة في المدينة وما حولها في السنوات القادمة ··· فقد اصبح ظاهرا ان الثقـل الحقيقي في هذه القوى الثلاث هو ذلك الذي يمثله الرسول صلى الله عليه وسلم · فقد جاء في نصوص الوثيقة ما يقرر بوضوح ان الرسول عليه السلام هو المرجع الذي تئول اليه الكلمة الاخيرة فيما يشجر من خلاف : «وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم»(٣) ، وايضا : وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد صلى الله عليـــــه وسلم (٤) · وقد وقع الرسول صلى الله عليه وسلم عهودا وصحائف متعددة مع العديد من القوى المجاورة وواضح ان بيعة العقبة الثانية كانت تمنـــح

---

(١) انظـر تفاصيـل ذلك في كل من : السيرة الحلبية ٢/١٥٣ ومـــا بعدها ، ابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٢٨٤ ـ ٢٩١

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٢٩٣

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٣٥٠

(٤) المصدر السابق

الرسول صلى الله عليه وسلم الحماية الكاملة لتبليغ دعوته(١) · واذا كان المسلمون من اهل المدينة قد اصبحوا جزءالا يتجزأ من هذا الدين الجديد ، واصبح لا حدود لارتباطهم به وتضحياتهم من اجله ، فان هناك الكثير من العناصر المترددة من اهل المدينة الذين اخذوا الامر فيما يظهر على انه نوع من الحلف المؤقت او الجوار العارض الذي يمنحه القوي المستقر للمستضعف المهاجر كما تقضي اخلاق الشهامة والمروءة وتقاليد الحماية والجوار المعروفة لدى العرب ·

وقد كان اكثر الناس تضررا بهذا التطور الطارىء في ميزان القوى بالمدينة بعد مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم اليها هو عبدالله بن أبي بنسلول فقد جاء النبي الى المدينة «وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، ما بقيت عليهم الا خرزة واحدة»(٢) · فكان عبدالله بن أبي بن سلول يرى ان النبي صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا(٣) · او كما عبر عن ذلك ابنه عبدالله في خطابه للرسول عليه السلام مفسرا موقفه : «ان ابي كانت اهل هذه البحيرة (أي المدينة) اتفقوا على ان يتوجوه عليهم فجاء الله عز وجل بك فوضعه ورفعنا بك»(٤) ·

وسوف نجد ان الدور الاساسي في قيادة حركة المنافقين وتوجيهها كان مرده الى عبدالله بن أبي بن سلول ، والى هذه الملابسات · التي فرضها التغير الطارىء في ميزان القوى بالمدينة والذي سببه ظهور الرسول بالمدينة واستتباب الدعوة الاسلامية وتمكنها فيها وما نتج عن ذلك من تغير لمقاييس السيادة والزعامة في المجتمع الجديد · وهناك الى جانب ابن أبي شخصيات قيادية اخرى حركها ضدها الاسلام دوافع مقاربة ···

هناك ابو عامر عبد عمرو بنضيفي بن النعمان ، احد بني ضبيعة بن زيد ، من الاوس · شريف مطاع في قومه ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح · فكان من شأن هذين السيدين ـ كما اورد ابن اسحق ـ «ان شقيا بشرفها»(٥) يعني ان الذي دفع هذين وامثالهما الى المعارضة ومضادة الله

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : طبعة السقا واخرون ج ٢ : ٨٤ ـ ٨٥
(٢) السيرة الحلبية ج ٣ : ٥٩٨
(٣) المصدر السابق · الموضع السابق
(٤) المصدر السابق ج ٣ : ٥٩٩
(٥) السيرة النبوية ط· السقا وآخرون ٢ : ٢٣٤

ورسوله هو زعامتهم وشرفهم الذي ظنوا او حسبوا ان الاسلام جاء ليسلبهم اياه ...

وقد اختلف موقف أبي عامر الراهب ـ الذي لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد بالفاسق ـ اختلف موقفه عن موقف ابن أُبي . فقد كان الرجل ينشد في قومه مكانة دينية بترهبه ولبسه المسوح في الجاهلية ، فكان في ظهور الرسالة الجديدة وصاحبها صلى الله عليه وسلم ، واستقرار الرسول بالمدينة ما وقف في سبيل أحلامه ... روى ابن اسحُق ان ابا عامر أتَى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فقال : جئت بالحنيفية ، دين ابراهيم ، قال فَأَنَا عليها. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها . قال : بَلَىَ ، إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ماليس منها . قال : ما فعلت ، ولكني جئت بها بيضاء نقية . قال : الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا .. »(١) .

ويكشف الحوار في هذه القصة عن المكان الذي يريد فيه ابو عامر نفسه ازاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اتخذت حياة ابي عامر ومعارضته للاسلام صورة النفور والاعراض الظاهر الصريح . فابى الا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الاسلام فخرج عنهم الى مكة ببضعة عشر رجلا مفارقا للاسلام ، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج الى الطائف ، فلما اسلم اهل الطائف لحق بالشام ، معاديا لله ورسوله ، فمات بها طريدا غريبا وحيدا ..

واذا كان عداء ابي عامر للاسلام وللرسول صلى اللهعليه وسلم قد اتخذ هذا المظهر الواضح الصريحفان امر ابن ابي كان على غير ذلك . فهو كان يرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أَبَـوْا الا الاسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن ..»(٢) .

وسوف نتتبع في هذا الفصل مظاهر هذا العداء المستتر الذي سلكه عبد الله بن ابي كما تعرضه السيرة ، فهو يجسم نموذجا للشخص المتردد الذي ضاع بين تطلعاته الى ملك سليب ، واحجامه عن الانسجام مع البناء الجديد في المجتمع المسلم الناشىء ...

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية : ج : ٤٢٤

(٢) ابنهشام : السيرة النبوية : ٢ . ٤٢٣

فذلك التطلع الى الرئاسة باستمرار منع عبدالله بن ابي من استيعاب ابعاد الدعوة الجديدة التي جاءت في اول الامر تلتمس حماية وجوارا لدى اهل يثرب فما برحت ان استخلصتهم لنفسها جنودا وانصارا · وبدلا من ان يمثل شان حماية هذه الدعوة جزءا من التحرك الجانبي في الحياة السياسية والاجتماعية ليثرب اصبحوا هم جزءا من هذه الدعوة ما زالت به حتى اتخذته منطلقا الى الاستقرار والانتصار ··· وبينما كانت جموع المهتدين من الانصار وأبنائهم يحلقون في اجواء الوحي والنبوة ، ويعيشون ابعاد الرسالة الالهية بمسئولياتها الكاملة في فناء وايثار ، كان عبدالله بن ابي ينظر الى محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه على انهم فئة طارئة جلبها صراع داخلي بين بيوتات قريش سوف ينتهي بانتصار محمد عليهم او بانتصارهم عليه او بصورة اخرى من صور الحل الذي ينجم عنه انتهاء هذه القوة الطارئة وعودة المياه الى مجاريها ، وعودة ابن ابي الى رئاسته ومكانته ، وربما حصوله على التاج الذي شغل قومه عن اعداده أمر الاسلام والدعوة اليه وحمايته !!

وهناك العديد من المواقف والاقوال التي اثرت عن عبدالله بن ابي بن سلول تؤكد هذا المعنى وتدل عليه :

قال ابن اسحق : «ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه على حمار عليه إكاف ·· فمر بعبدالله بن أُبي وهو في ظل مزاحم أطمه ، وحوله رجال من قومه · فلما رآه الرسول عليه السلام تذمم ان يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم،ثم جلس قليلا فتلا القرآن ودعا الى الله عز وجل ،وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر ، قال : وهو (أي عبدالله بن أُبي) زام لا يتكلم حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من مقالته قال : يا هذا ، انه لا أحسن من حديثك إن كان حقا · فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه اياه ، ومن لم يأتك فلا تَغْتَهُ به ولا تأته في مجلسه بما يكره منه ! »(١) ·

وروى الدارقطني مسندا «ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على جماعة فيهم عبدالله بن أُبي فسلم عليهم ثم وَلَّى فقال عبدالله : لقد عتا ابن أبي كبشة في هذه البلاد ! »(٢)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٤٢٥
(٢) السيرة الحلبية : ٣/٥٩٩

ففي هذين النصين يظهر عدم ايمان ابن أبي بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو لا يدري ان كان حقا أم لا ، وهو يرى ان غشيان الناس به هو اثقال عليهم · ولا يخفى ما في مواجهة الرسول عليه السلام بتلك اللهجة «يا هذا، !» وقوله عنه : «لقد عتا امر ابن أبي كبشة» ، وعدم ذكره بصفة النبوة ـ لا يخفى ما في ذلك من الاستخفاف به صلى الله عليه وسلم وبامر الاسلا م والمسلمين · واذا كان ايمان قوم ابن أبي بالرسول واتباعهم له جعله يخضع لهذا الامر الواقع ويقبل به ، فهو لا ينسى ان يحاول باستمرار ان يحتفظ لنفسه بمكانتها التي يراها لها · فقد كان لعبدالله بن ابي بن سلول «مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفا له في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفا، اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبدالله بن ابي فقال : «ايها الناس · هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهركم اكرمكم الله واعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له واطيعوا له ثم يجلس ·»(١) وواضح ان قصده من ذلك ـ حين لم يكن صادقا فيه كل الصدق ـ ان يضع نفسه في مكان ومقام يظهر معه تأييد المسلمين من الانصار وطاعتهم للرسول عليه السلام وكانهما صادران عن توجيه منه · وهذا تأكيد وتثبيت لمكانته ومركزه هو في الدرجة الاولى ، يحاول حفظها حتى لا تفلت من يده ، وحتى لا يضيع في غمرة النسيان وفي دورة الاحداث ··

ولعل ابرز موقف يظهر تصور ابن ابي لامر الرسول والمهاجرين والاسلام كله ما كان منه غداة مرجع الرسول عليه السلام من غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ست للهجرة ، واحدثت المنافرة بين اجير عمر واحد موالي الانصار ··· فغضب عبدالله بن ابي وعنده رهط من قومه فقال : «او قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا · والله ما اعدنا وجلابيب قريش الا كما قال الاول : سمن كلبك يأكلك ، واما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل · ثم اقبل على من حضر من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، احللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم اموالكم ، اما والله لو امسكتم منهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير داركم؛ ··»(٢) ·

وتزيد بعض الروايات قوله : «ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم انفسكم اغراضا للمنايا فقتلتم دونه (يعني النبي صلى اللهعليه وسلم) فايتمتم اولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا حتى ينفضوا من عند محمد ··»(٣) ·

---

(١) ابن هشام : السيرة انبوية ٣/٦١٨ ـ ٦١٩
(٢) ابن هشام : السيرة النبويه ط السقا وآخرون : ج ٣ : ٧٥٨
(٣) السيرة الحلبية : ٥٩٦

وعبارات ابن أبي هنا اوضح من ان تحتاج تعليقا يوضحها ليظهر رأيه الصريح في الامر كله والذي كشف عنه هنا في لحظة غضب غالبة :

بقي ان نشير هنا الى واقعتين اخريين تكشفان تصور ابن ابي لموقفه وللدوافع التي كانت توجه تصرفاته · اما الاولى فقد كانت في وقعة أحد ، فقد كان رأي عبدالله بن ابي بن سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكره الخروج لملاقاة قريش ويفضل انتظارهم بالمدينة · بينما كان رأي أغلب المسلمين الخروج ، خصوصا من تخلف منهم عن بدر ، تكفيرا عن تخلفهم ذلك وشوقا الى الجهاد وقتال المشركين فغلبوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الخروج فخرج لملاقاة المشركين خارج المدينة · حتى اذا كان بالشوط ، موضع بين المدينة واحد ، انخزل عنه عبدالله بن ابي بثلث الناس ، وقال : «اطاعهم وعصاني · ما ندري علام نقتل انفسنا هاهنا ايها الناس» فرجع بمن تبعه من قومه من اهل النفاق(١) ·

فهو ما زال هنا يتصدر للقيادة ويتخذ المواقف التي يحاول ان يحفظ بها لنفسه مكانة السيد المطاع ، ويلقي باللوم على الرسول صلى الله عليه وسلم لانه عصاه واطاع الناس · ثم هو لا يستبين الهدف من الصراع الدائر ـ وربما كانت حجته في البقاء بالمدينة هو ان يقاتل عن مبرر اخر غير مبرر الانتصار للاسلام وللنبي صلى الله عليه وسلم ـ اعني مبرر الدفاع عن داره ودار قومه ـ المدينة · بل هو يتساءل علنا : «ما ندري علام نقتل انفسنا هاهنا ايها الناس !» وقد تكرر منه ما يشبه هذا في غزوة تبوك (٢)

اما الواقعة الثانية فكانت حين «حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قينقاع حتى نزلوا على حكمه · فقام عبدالله بن أبي بن سلول ـ حين امكن الله منهم ـ قال : يا محمد ، أحسن في موالي ، وكانوا حلفاء الخزرج · فابطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد ، احسن في موالي فاعرض عنه · فأدخل يده في جيب درع رسول الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسلني · وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى راوا لوجهه ظللا ثم قال : ويحك : ارسلني · قال : لا · والله لا ارسلك حتى

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٥٨٤ ـ ٥٨٥
(٢) المصدر السابق ٤/٩٤٦

تحسن في موالي ، اربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعوني من الاحمر والاسود تحصدهم في غداة واحدة ؟! اني والله امرؤ اخشى الدوائر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك(١) ٠

وهذه الحادثة تظهر مدى تعلقه باعداء الاسلام من اليهود وموادته لهم ٠ فهو يرى في القضاء عليهم عملية تقليم لاظافره وتحطيم لنفوذه ، فهم انصاره ومواليه يحمونه من الاحمر والاسود ـ على حد قوله ـ وهو لم يقنع بأن يربط مصيره بمصير الرسول والاسلام والمسلمين ، ولم تكن لديه الثقة في انتصارهم وغلبتهم ، فهو لذلك يحذر الدوائر ويحتاط لها ، ويذهب في ذلك الى حد التدخل لحماية اعداء الله ورسوله من اليهود ٠

وقد أسهبنا في ايراد هذه الوقائع والاقوال مما صدر عن ابن ابي او تحرك به وقام عليه كشخصية اساسية كان مدار حركة المنافقين ورأسهم الذي يلوذون به ويأتمرون بأمره لتتضح لنا الدوافع الحقيقية لدوره الذي لعبه في حياته التي مضى فيها الى اخر لحظة منافقا عاتي النفاق سادر الضلال ٠٠ ونستطيع ان نرسم لمحة عامة لاتجاه مواقفه في الاتي :

فهو كان يرى ان الرسول عليه السلام قد استلبه ملكا بقدومه الى المدينة واستقراره بها ، فمنعه حسده للنبي صلى الله عليه وسلم وتطلعه لمنصب الرئاسة من استيعاب الدعوة الاسلامية وادراك ابعادها ، فكان ينظر الى النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه على انهم فئة طارئة جلبها صراع داخلي بين بيوتات قريش سوف ينتهي بصورة او اخرى ، وعليه حتى حين تحقق ذلك ان يحتفظ لنفسه بمقومات الرئاسة والزعامة ٠ ولم يقنع ان يربط مصيره بالاسلام والمسلمين لعدم ايمانه وضعف يقينه فكان يحذر الدوائر ويحتاط لها ويسلك الى ذلك ما يراه ضمانا لزعامته بما في ذلك موالاة اعداء المسلمين من اليهود والارتباط بهم وتأييدهم في السر والعلن ٠

كان عبدالله بن أُبي هو رأس هذه الحركة التي آثرت أن تحارب الاسلام من الداخل ـ حركة القوى المترددة التي كانت تتربص برسول الله صلى الله عليه وسلم الدوائر وتكن له العداء وتحاربه بكل اسلوب خفي ، ولكنها

---

(١) السيرة الحلبية : ٢/٤٧٧ ـ ٤٧٨

لا تجرؤ على المجاهرة بالعداء ـ لان الاسلام استطاع بامتلاكه لقلـــــوب الانصار وارواحهم ان يحدث خلخلة حقيقية في ذلك المجتمع ، وان يضم الى صفوفه الاكثرية الغالبة من اهل الشوكة ، وان يمزج بين انصاره من مختلف القبائل والبيوتات ، فلم يصف للمعارضة سند ترتكز عليه ـ وكانت في موقفها المتردد الخانس تصدر عن ادراك حقيقي لقوة الاسلام وتغلغله في اوساطها ... وسنحاول في الفصل التالي ان نرصد تحركات المنافقين في المجتمع الاسلامي الاول ، وان نتتبع ببعض التفصيل ـ وفي النطاق الذي تتيحه لنا مصادرنـــا المحدودة ـ أساليبهم التي قاموا بها في وجه الدعوة الاسلامية .

★ ★ ★

الفصل الرابع

المظاهر العملية لتحركات المنافقين في المدينة

المظاهر العملية لتحركات المنافقين في المدينة

لقد تباينت تحركات المنافقين في مراحل التطور الاولى للمجتمع الاسلامي الاول ما بين محاولات توهين المسلمين والاستهزاء بهم واشاعة الفوضى بينهم تارة بخذلان المجاهدين والارجاف بهم وتقوية الاعداء عليهم وتارة بترويج الاشاعة وقالة السوء في المجتمع المسلم ، والقصد بذلك الى بيت النبوة نفسه · واخرى باظهار التكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم واستهدافه بالعداء حتى لقد بلغ بهم الامر محاولة قتله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك كله موالاة اليهود وموادتهم وتحريضهم على الرسول والمسلمين ··

واول ما يطالعنا من ارجاف المنافقين بالرسول صلى الله عليه وسلم انه بعد منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر منتصرا ، ارسل عبدالله بن رواحة وزيد بن حارثة مبشرين لاهل المدينة بسلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتل المشركين · وجاء رجل من المنافقين يقول لابي لبابة : قد تفرق اصحابكم تفرقا لا يجتمعون بعده ابدا · قد قتل محمد وغالب اصحابه ، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب !! قال اسامة : فجئت حتى خلوت بابي لبابة وسالته عما اسره له الرجل ، فاخبرني بما اخبره به · فقلت : احقا ما تقول ؟ قال : اي والله ، حق ما اقول يا بني · فقويت نفسي ورجعت الى ذلك المنافق فقلت : انت المرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنقدمنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قدم فيضرب عنقك · فقال : انما هو شيء سمعته من الناس يقولونه»(١) ·

وقد كان هذا النصر الذي حققه الله لرسوله وللمؤمنين في وقعة بدر منطلقا جديدا في تاريخ الدعوة الاسلامية ، دعم وجودها وارسى مكانتها ، وجعل اعداءها يحسبون لها حسابا جديدا ··· فهناك من استكبر واظهر الكيد والعداء كما كان من شأن يهود بني قينقاع ، وهناك آخرون ممن استشعر قوة الاسلام وداخلتهم هيبة المسلمين فتقبلوا ذلك على ضغن ونفاق ، ومنذ ذلك الحين بدات مسيرة النفاق في منطلقها الخبيث حتى أظهر الله دينه واعلى كلمته وأعزّ جنده ·

---

(١) السيرة الحلبية : ٢/٤٣٧

وقد المحنا فيما سبق انه من حين هاجر النبي صلى الله عليه وسلم ٠ صار الناس ثلاثة اصناف : اما مؤمن ، واما كافر مظهر لكفره ، واما منافق ٠ وقد قال احمد بن حنبل وغيره : لم يكن من المهاجرين منافق ٠ وانما كان النفاق في قبائل الانصار ، فان مكة كانت الكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهاجر الا من هو مؤمن ، ليس هناك داع يدعو الى النفاق ٠ والمدينة من بها من اهل الشوكة ، فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالانصار فمن لم يظهر الايمان آذوه ٠ فاحتاج المنافقون الى اظهار الايمان مع ان قلوبهم لم تؤمن(١) ٠

ولكنهم كلما وجدوا فرصة لاظهار ما يعتمل في صدورهم من الضغن والفساد أظهروه وتنفسوا به ٠ ولم يبدر من ذلك ما هو ذو قيمة حتى حاصر الرسول صلى الله عليه وسلم يهود بني قينقاع ٠ فانه «لما كانت وقعة بدر اظهروا البغي والحسد ، ونبذوا العهد الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهدهم هم وبني قريظة الا يحاربوه وان لا يظاهروا عليه عدوه ٠ وقد دعاهم الرسول الى الاسلام فأعرضوا عنه وتنمروا له وكان مما قالوه : «يا محمد ، انك ترى انا قومك ؟! ولا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت لهم فرصة، انا والله لو حاربناك لتعلمن انا نحن الناس»(٢) ٠ فنبذ اليهم النبي صلى الله عليه وسلم وآذنهم بالحرب فتحصنوا في حصونهم فسار اليهم فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه وأجلاهم صلى الله عليه وسلم عن المدينة ٠

وكان يهود بني قينقاع حلفاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه وعبدالله ابن أبي بن سلول ٠ فلما غضب المسلمون على بني قينقاع لغدرهم ، وقال لهم صلى الله عليه وسلم «**ما على هذا أقررناهم**» تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم ولكن عبدالله بن أُبي تشبث بهذا الحلف ٠٠ ليس هذا فحسب ، بل انه لما نزلت بنو قينقاع من حصونهم ، وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم فكتفوا وقدمهم للقتل كلمه فيهم عبدالله بن ابي والح عليه الحاحا شديدا قائلا : إنهم عزي وأنا امرؤ اخشى الدوائر ٠٠ وقد سبقت الاشارة الى هذا بشيء من التفصيل(٣) ٠ فكان موقف ابن أُبي هذا ، وخلافه على الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين بحمايته لأعدائهم وتشبثه بحلفهم ٠ من مظاهر النفاق

---

(١) ابن تيمية : الايمان : ١١٩ ٠
(٢) السيرة الحلبية : ٢/٤٧٧ ـ ٤٧٨ ، ابن هشام : السيرة النبوية : ٢/٥٦٢ـ٥٦٣ ٠
(٣) المصدر السابق وانظر ما سبق ص ٤١ ٠

المستعلن الذي كشف عن هذا الحلف الوثيق بين المنافقين واليهود ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وسوف تتكشف مظاهر عديدة لهذا التحالف فيما بعد ٠

ثم كان يوم أُحد في شوال سنة ثلاث للهجرة ٠ اليوم الذي يصفه ابن اسحق انه «يوم بلاءوتمحيص اختبر الله به المؤمنين ومحن به المنافقين ممن كان يظهر الايمان بلسانه وهو مستخف بالكفر في قلبه»(١) ٠

وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى لقاء المشركين في أُحد ، وكان رأية ورأى اكابر المهاجرين والانصار ان يقيموا بالمدينة ويتحصنوا بها ولا يخرجوا اليهم ـ وكان ذلك رأي ابن ابي ايضا ولكن كان رأي اغلب المسلمين ان يخرجوا لملاقاة عدوهم خارج المدينة فانقاد الرسول صلى اللهعليه وسلم لهم وخرج بهم ٠٠ وادلج الرسول صلى الله عليه وسلم في السحر فحانت صلاة الصبح «بالشوط» ـ حائط بين المدينة واحد ، ومن ذلك المكان رجع عبدالله بن أُبي بن سلول ومن معه من اهل النفاق وهم ثلاثمائة رجل وهو يقول : «عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، سيعلم ! ما ندري علام نقتل انفسنا ارجعوا ايها الناس» ٠ فرجعوا(٢) ٠

وقد اعتذر هو وأصحابه عن رجوعهم انهم لا يعلمون انه سيكون قتال وهو عذر انتحلوه للتغطية على موقفهم الحقيقي الذي ينبع من معارضتهم الاصلية لقوة الاسلام التي بدات تفرض نفسها على المدينة وانحائها بعد انتصار المسلمين في بدر واجلائهم لبني قينقاع ٠٠ وقد كان ابن أُبي يتصور انه بتخليه عن المسلمين في مسيرهم الى أُحد سيهز من موقفهم وسيفت في عضدهم ، وسيستعيد لنفسه مركزه الذي يمكنه من السيطرة على المدينة وان تكون له فيها وفي شئونها في السلم والحرب الكلمة الاولى ٠٠ وفي كلمة التي نطق بها يومئذ : «والله ما ندري علام نقتل انفسنا هاهنا» كشف لحقيقة موقفه الذي ليس فيه للاسلام ونصرته نصيب ولو ضئيل جدا ٠٠ وقد تعرض المسلمون في (أُحد) لهزة عنيفة، ونال منهم عدوهم ، وشجّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ج ٣/٦١٩

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ط٠ السقا وآخرون ج ٣ : ٦٨ ، السيرة الحلبية ٢ : ٤٩٤

رباعيته وكان في المسلمين قتلى كثير ... ولما وصل الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة «اظهر المنافقون واليهود» ـ كما تقول السيرة «الشماتة والسرور» وصاروا يظهرون أقبح القول ، من ذلك قولهم : «ما محمد الا طالب ملك !! ما أُصيب بمثل هذا نبي قط ، أُصيب في بدنه وأُصيب في اصحابه» . ويقولون : لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل»(١) .

وليس ابلغ في الطعن فيرسول الله صلى الله وسلم من قولهم هذا .. وهو اشبه بهم وبقلوبهم ، يريدون بذلك ان يصوروا ان النبي صلى الله عليه وسلم طالب ملك لا اكثر ... واذا كان الامر كذلك فأهل الدار اولى به .. ولكن الاسلام كان قد استحكم واشتد عوده وقويت شوكة المسلمين ، فادت اقاويل هؤلاء من المنافقين الى كشفهم وقيام المسلمين عليهم ..

فقد استاذن عمر بن الخطاب النبي صلى الله عليه وسلم في قتلهم . فقال صلى الله عليه وسلم : اليس يظهرون شهادة ان لا اله الا الله واني رسول الله ؟ قال : بلى ، ولكن تعوذا من السيف ، فقد بان امرهم واظهر الله اضغانهم . فقال صلى الله عليه وسلم : نهيت عن قتل من اظهر ذلك (٢) .

وافتضح ابن أُبي في هذه الغزوة لتخلفه وانخذاله عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقد كانت عادته اذا جلس الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر قام فقال : «أيها الناس ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهركم أكرمكم الله تعالى به واعزكم ، فانصروه وعزروه واسمعوا له واطيعوا، ثم يجلس» فبعد «احد» اراد ان يفعل كذلك ، فلما قام أخذ المسلمون بثوبه من نواحية وقالوا له : اجلس عدو الله ، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت ..(٣)

وكان هذا من مظاهر الاستياء العام العلنية التي واجه بها المسلمون ابن أُبي ، وقبل ذلك دفعه احد الصحابة دفعة شديدة شجّ بها وجهه عند محاولته الدخول على الرسول صلى الله عليه وسلم ليشفع في مواليه من بني قينقاع ، ويطلب اقرارهم(٤) . وحتى يظهر الرسول صلى الله عليه وسلم سخطه وسخط المسلمين على ما قام به المنافقون في أُحد ، فانه لما خرج صبيحة قدومه

---

(١) السيرة الحلبية : ٢/٥٤٩
(٢) المصدر السابق .
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣/٦١٨ ـ ٦١٩
(٤) السيرة الحلبية : ٢ ـ ٤١٨

من أُحد خلف قريش ارهابا لهم أذّن مؤذّنه الا يخرج الا من حضر أُحدا ... وكان هذا الموقف طرحا لهذه الطائفة وتقليلا لدورها وشأنها واظهارا لغناء الاسلام عنها ـ كرد فعل مباشر لموقف عبدالله بن أُبي وصحبه بسبب رجوعهم من «الشوط» وتخليهم عن مواجهة المشركين في أُحد .

اما الموقف الثاني الذي اظهر تمالؤ المنافقين مع اعداء الاسلام من يهود فكان في مراسلتهم لبني النضير وتحريضهم اياهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك انه لماهم بنو النضير بطرح الرحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم مستهدفين قتله ... ونذر بهم الرسول صلى الله عليه وسلم ارسل اليهم محمد بن مسلمة رضي الله تعلى عنه يأمرهم بالخروج ويؤجلهم عشرا فمن رؤي منهم بعد ذلك ضربت عنقه . فأرسل اليهود في احضار الابل للجلاء فبعث اليهم المنافقون : «ان لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم . ان قوتلتم فلكم علينا النصر وان اخرجتم فلن نتخلف عنكم.»(١) وارسل اليهم عبدالله بن ابي بن سلول : «لا تخرجوا من دياركم واقيموا في حصونكم ، فان معي الفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن اخرهم قبل ان يوصل اليكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان»(٢) .

وكان ابن أُبي يرسل اليهم بذلك بعد ان فرض المسلمون عليهم الحصار يقول : اثبتوا وتمنعوا فانكم ان قوتلتم قاتلنا معكم وان أُخرجتم خرجنا معكم فخذلهم ولم يحصل منه شيء ..(٣) .

ونزل اليهود من حصونهم بعد ان اتفقوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ان يجليهم ويكف عن دمائهم على ان لهم ما حملت الابل من اموالهم إلا آلة الحرب ... وتذكر الروايات ان المنافقين «حزنوا لاجلائهم وخروجهم اشد الحزن»(٤) وقد نزل القرآن في شأن هؤلاء مبينا ما كان من أمرهم كاشفا دورهم ذلك ، يقول سبحانه وتعالى في سورة الحشر :

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٦٨٣

(٢) المصدر السابق ، السيرة الحلبية ٢/٥٦١

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٦٨٣ ويذكر ان الذين راسلوهم هم عبد الله ابن أبي ، ووديعة ومالك بن ابي قوقعل وسويد وداعس : وانظر كذلك : السيرة الحلبية : ٢/٥٦١

(٤) السيرة الحلبية ٢/٥٦٦ .

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ · وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ · لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ»(١) ·

وتتابعت بعد ذلك مواقف المنافقين في شغبهم وكيدهم ، كلها تؤكد هذا المنطلق الذي انتهجه ابن أبي بتلك الدوافع التي أشرنا اليها من قبل ، ما بين ارجاف بالمسلمين وتوهين لهم ، لا يخفون شيئا من ذلك كلما سنحت لهم الفرصة · فعندما غدرت عضل والقارة ، وهم رهط من الهون بن خزيمة بن مدركة ، بالنفر الستة الذين ارسلهم معهم الرسول صلى الله عليه وسلم ليفقهوهم في الدين ويعلموهم القرآن فقتلوا منهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وخالد بن البكير الليثي ، وعاصم بن ثابت ابن ابي الاقلح وعبد الله بن طارق ، وباعوا من قريش خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ، باعوهما بأسيرين من هذيل كانا بمكة(٢) ، وجد المنافقون في ذلك مجالا للكلام والافصاح عما في نفوسهم · قال ابن عباس : لما اصيبت السرية التي كان فيها مرثد وعاصم بالرجيع قال رجال من المنافقين : «ياويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا !! لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم!»(٣) ·

فهم لا يجدون في تصورهم الخالي من نفحات الايمان الصادق مبررا لمثل تلك التضحية التي ذهب فيها هؤلاء الدعاة الستة ··· ولا يتصورون كيف يمكن ان يقدم المرء نفسه «للهلاك هكذا» حسب قولهم الا ان يكون من المفتونين ممن لا عقل لهم ·· وواضح ما يهدف اليه مثل هذا القول الخبيث من تثبيط غيرهم من المسلمين عن مثل تلك المهام التي تحفها الاخطار ويكتنفها غدر الاعراب ··

وقد ذكر ابن عباس ان الآيات ٢٠٤ ، ٢٠٧ من سورة البقرة نزلت في هؤلاء المنافقين الذين قالوا هذا القول : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» ·· الآيات(٤) ·

---

(١) سورة الحشر : ١١ ـ ١٢ ·
(٢) سيرة ابن هشام : ٣ ـ ٦٧ وما بعدها
(٣) المصدر السابق : ٣ ـ ٦٧١
(٤) المصدر السابق ٣ ـ ٦٧١ ـ ٦٧٢

وتتداخل مواقف المنافقين في خط المعارضة الذي انتهجوه وارتضـــوه لانفسهم ما بين نكوص عن الجهاد وتوهين للمسلمين وتحريض لاعداء الاسلام من يهود وغيرهم ومؤازرتهم على عداوة الرسول والاسلام ـ بل بلغت في بعض المواقف الى محاولة الاعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم في شخصه ومحاولة قتله ٠

ونمضي في تتبع مواقفهم كما وردت في السيرة في تسلسلها التاريخي ـ ففي غزوة الخندق ، في شوال سنة خمس من الهجرة (١) ، وهي غزوة الاحزاب التي ابتلى الله تعالى فيها عباده المؤمنين ، وثبت الايمان في قلوب أوليائه المتقين، واظهر ما يبطنه اهل النفاق والشقاق المعاندين ٠ وفيها تحزبت قريش مع احلافها من غطفان وغيرهم بتحريض من اليهود ، واجمعوا على غزو المسلمين بالمدينة ، فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة واستعد لقتالهم ٠

واجتهد المسلمون في حفر الخندق وتهيئته ٠ فعمل فيه رسول الله صلـى الله عليه وسلم للمسلمين في الاجر وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودأبوا ٠ وجعل الرجل من المسلمين اذا نابته النائبة من الحاجة لا بـــد لـه منهـــا ، يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته ، فياذن له ، فاذا قضى حاجته رجع الى ما كان فيه من عمله ـ رغبة في الخير ، واحتسابا لـــه (٢) ٠

وظهرفي هذه الاثناء تخاذل المنافقين ونكوصهم ٠ «فتباطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين ، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ، ويتسللون الى أهليهم بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا إذن»(٣) ٠

وعندما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه ان الله سيفتح عليهم اليمن والشام وفارس ، قال جمع من المنافقين ـ منهم معتب بن قشير في بعض الاقوال ـ : «ألاتعجبون من محمد ٠ يمنّيكم ويعدكم الباطل ، ويخبركم انه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وانها تفتح لكم وانما انتم تحفرون الخندق من الْفَرَقِ (الخوف) لا تستطيعون ان تبرزوا»(٤) ٠

---

(١) المصدر السابق : ٦٩٩
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣ ـ ٧٠١ ، السيرة الحلبية ٢ ـ ٦٣٣
(٣) حلبية : ٢ ـ ٦٣٣ ، ابن هشام : السيرة النبوية : ٣ ـ ٧٠١
(٤) السيرة الحلبية : ٢ ـ ٦٣٥

ولما نقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، اشتد الامر على المسلمين ، ونجم النفاق من المنافقين حتى قال قائلهم : «كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه ان يذهب الى الغائط ، ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ..»(١) .

وتتابع المنافقون على التسلل والانسحاب من الخندق الى بيوتهم وجعلوا يستأذنون ويقولون ان بيوتنا عورة من العدو لانها خارج المدينة وحيطانهـــا قصيرة يخشى عليها السرقة ، فأذن لنا ان نرجع الى نسائنا وابنائنا وذرارينا ... فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأذن لهم ، حتى انه لم يبق معـه عليه السلام ليلة منصرف الاحزاب ورجوعهم عن المدينة الا ثلثمائة ..(٢) .

وقد اصبح موقف التخلف عن نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم الصدق في الجهاد ، علامة من علامات النفاق الظاهرة تتكرر كلما عرضت غزوة او سرية ... الا انهم تحولوا بعد هذه المرحلة الى اسلوب جديد قصـد فيهاصحابه الى القيام بدور حاسم ضد الجماعة الاسلامية ، ولكن جاء ذلـك بعد فوات الاوان ، وبعد ان زال عن المنافقين كل مبرر لتحقيق مثل تلـــك الخطوة ...

حدث ذلك في غزوة بني المصطلق في شعبان سنة (٦) للهجرة (٣) ، «وخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ناس كثيـر مـن المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط مثلها ـ منهم عبدالله بن ابي بن سلـول وزيد بن اللصيت ، ليست لهم رغبة في الجهاد ـ وانما غرضهم ان يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة» (٤) ثم بعد انقضاء الحرب وهم على ماء المريسيع ، اختصم اجير لعمر بن الخطاب كان يقود له فرسه يقال له جهجاه مع سنان بن فروة من حلفاء الخزرج (قيل هو حليف عمرو بن عمرو وقيل : حليف عبدالله بن أبي) . فضرب اجير عمر حليف الخزرج فسال الدم فنادى سنان : يا للانصار ! ، ونادى جهجاه : يا للمهاجرين ، فشهر الفريقان السلاح

---

(١) المصدر السابق : ٢ ـ ٦٤٠ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٣ ـ ٧٠٦
(٢) المصدر السابق : ٣ ـ ٧٠٧ السيرة النبوية : ٢ ـ ٦٥١
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٣ ـ ٧٥٧ وهو الصواب وعند غيره انها سنة خمس قبل الاحزاب
(٤) السيرة الحلبية ٢ ـ ٥٨٤

وكادت تكون فتنة عظيمة ، لولا ان الرسول صلى الله عليه وسلم حسم خلافهم ذلك ·· ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه ، فسكنت الفتنة وانطفات ثائـــرة الحرب(١) ·

وتذكر الروايات انه عند تخاصم الرجلين «غضب عبدالله بن أبي ، وكان عنده رهط من قومه من الخزرج من المنافقين ـ وكان عندهم زيد بن أرقم رضي الله عنه · وهو غلام حدث السن · فقال عبدالله بن ابي : والله ما رأيت كاليوم مذلة ، أوقد فعلوها ؟ نافرونا وكاثرونافي بلادنا ! والله ماأعدنا وجلابيب قريش هؤلاء الا كما قال الاول : سمّن كلبك يأكلك ، والله لقد ظننت انـــي سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما سمعت ، أما والله لئن رجعنا الـــى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ · يعني بالاعز نفسه والاذل النبي صلى الله عليـه وسلـم » (٢) ·

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : هذا ما فعلتم بانفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو امسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا الى غير داركم ، ثم لم ترضوا حتى جعلتم انفسكم غرضا للمنايا فقتلتم دونه فايتمتم اولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد صلى اللـه عليه وسلم (٣) ·

وقد اعلن ابن أبي في كلامه هذا عداءه الخفي الذي كان يحبسه في نفسه ويكتمه طوال السنين الست السابقة ··· فانفجر به في لحظة حســـد وغضب وضغينة غالبة ··· فها هو يجد نفسه مجرد تابع في جيش منتصر يصـــرف امره الرسول صلى الله عليه وسلم فهو الذي يوزع الفيء ويقسمه بما أراه الله سبحانه وتعالى ·· ويعرس على جويرية بنت الحارث ، سيد قومها ··· ولا يكون لابن أبي من الرئاسة والتصرف شيء مما كان يراه حقا له لا ينبغي ان ينازع فيه ·· وتتجمع كل تلك الجوامع المترسبة في نفسه النافرة الضاغنة لتنفجر في لحظة غضب التمس لها ابن ابي سببا ليظهرها فيه تلك المنافـــرة العابرة بين مولى وأجير ـ فاذا به يعطي في كلماته التي قالها تصويرا دقيقـا للموقف كما يراه ، وخطة واضحة متكاملة لاذلال المسلمين وتحويلهم عن المدينة، حتى يستعيد هو لنفسه جاهها الضائع ··· فهو يقترح على قومه ان يتخلوا عن

---

(١) المصدر السابق : ٢ ـ ٥٩٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية : ٣ ـ ٧٥٨ ·
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣ ـ ٧٥٨ ·
(٣) السيرة الحلبية : ٢ : ٥٩٦ ·

مناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ويأمرهم بعدم الانفاق على المسلمين ليتفرقوا ويطلبوا مأوى آخر غير المدينة ..

وقد سمع كلام ابن أبي زيد بن أرقم رضي الله عنه فمشى به الى الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر وعنده نفر من المهاجرين والانصار ، فيهم عمر بن الخطاب . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالة ابن أبي واستكثر ان يقول ذلك ..

وعندما رأى عمر غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم التمس منه ان يدعه يقتل ابن ابي او يأمر محمد بن مسلمة اوعباد بن بشر بقتله ... فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :كيف يا عمر اذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل اصحابه .. ولكن أذن بالرحيل .» وذلك لما شاع الخبر في الناس ولم يكن لهم حديث غيره فارتحل الرسول صلى الله عليه وسلم بالناس في ساعة لم يكن يرحل فيها ... وجاءه اسيد بن حضير رضي الله عنه فحياه بتحية النبوة، وقال : يا نبي الله ، لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : أي صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبدالله بن أبي بن سلول . قال : وما قال ؟ قال : زعم انه ان رجع الى المدينة أخرج الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .

قال : فأنت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت ، هو والله الذليل وانت العزيز . ثم قال يا رسول الله ، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، ما بقيت عليهم الا خرزة واحدة عند يوشع اليهودي ، فإِنَّهُ لَيَرَى انك استلبته ملكا»(١) .

وسار النبي صلى الله عليه وسلم بالناس سيرا حثيثا يومهم ذاك وليلتهم وصدر ذلك اليوم التالي حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس . فلم يلبثوا ان وجدوا مس الارض وقعوا نياما . وانما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالامس من حديث عبدالله بن أبي بن سلول..(٢) .

وذهب بعض الانصار الذين سمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم ورده على زيد بن ارقم الى ابن ابي فقال له : ان قلت ما نقل عنك فاخبر النبي به

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : تحقيق السقا وآخرون : ج ٣ : ٣٠٤
(٢) المصدر السابق ج ٣ : ٣٠٤

فليستغفر لك ولا تجحده فينزل فيك ما يكذبك · وان كنت لم تقله فائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذر له واحلف له ما قلته ـ ـ فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئا ··(١) ·

وقد كان كلام ابن ابي مثار سخط المسلمين وغضبهم ، وكان اشدهم عليه ابنه عبدالله · فانه لما بلغه مقالة عمر عن قتل أبيه جاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، انه بلغني انك تريد قتل عبدالله ابن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا فمرني ان أحمل لك رأسه · فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل ابر بوالده مني ، اني اخشى ان تأمر به غيري فيقتله فأقتل مؤمنا بكافر فادخل النار · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا فقال عبدالله : يا رسول الله، ان ابي كانت اهل هذه البحيرة اتفقوا على ان يتوجوه عليهم فجاء الله عز وجل بك فوضعه ورفعنابك ـ ومعه قوم من المنافقين يطيفون به ويذكرونه امورا قد غلب الله عليها»(٢)

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى وادي العقيق تقدم عبد الله رضي الله عنه ابن عبدالله بن ابي وجعل يتصفح الركاب حتى مر ابوه · فأناخ به ثم وطىء على يد راحلته · فقال ابوه : ما تريد يا لكع ؟ فقال والله لا تدخل حتى تقر انك الذليل وان رسول الله صلى الله عليه وسلم العزيز ، حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتعلم ايضا الاعز من الاذل ، انت او رسول الله صلى الله عليه وسلم · فصار يقول : لَأَنَا أذلّ من الصبيان · لَأَنَا أذلّ من النساء · حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خلّ عن أبيك · فخلّى عنه(٣) ·

وانزل الله تعالى سورة المنافقين ، وصار قوم عبدالله بن أبي ـ عند نزول سورة «المنافقون» يعاتبونه ويعنفونه · ولما بلغه صلى الله عليه وسلم بغض قومه له ومعاتبتهم اياه · قال عليه السلام لعمر : كَيْفَ تَرَى يا عمر ؟ إني واللّهِ لَوْ قَتَلْتُهُ يَوْمَ قُلْتَ لَأَرْعَدَتْ لَهُ أُنُوفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ··»(٤)

---

(١) السيرة الحلبية ج ٣ : ٥٩٧ ، وابن هشام : ج ٣ : ٣٠٣ ـ ٣٠٤
(٢) السيرة الحلبية : ٢ : ٥٩٩
(٣) السيرة الحلبية ج ٢ : ٦٠٢
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية : طبعة السقا وآخرون : ج ٣ : ٣٠٥ ، السيرة الحلبية ج ٣ : ٦٠٣

ولكن ابن أبي استمر على نفاقه وتعنته ، ولما نزلت سورة المنافقين بتكذيبه قال له اصحابه : اذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك · فلوى رأسه ثم قال : امرتموني ان آمن فآمنت ، وامرتموني ان اعطي زكاة اموالي فأعطيت ، فما بقي الا ان اسجد لمحمد ؟!»(١) ·

وما كادت تنطفيء ثائرة هذه الفتنة حتى اثار المنافقون فتنة اخرى اشد وادهى ، كانت هذه المرة من نوع اخر ، وان كانت في زمان حدوثها غير بعيدة عن سابقتها ، فقد بدأت ملامحها في رحلة العودة من غزوة بني المصطلق· وتلك الفتنة هي ما عرف في التاريخ الاسلامي «بحديث الافك» · وهي الحملة الثانية من نوعها التي استهدفت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخصه وأهله من قبل المنافقين واليهود ···

كانت الحملة الاولى في ذي القعدة من سنة خمس عندما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش مطلقة متبناه زيد بن حارثة · فعند ذلك قام المنافقون في المدينة بفتنة عظيمة ، واثاروا الضجة حول قصة هذا الزواج وايدهم وقوى ساعدهم من الخارج اليهود والمشركون وجاءوا بالاكاذيب والافتراءات على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : هذا محمد وقع في غرام زوجة متبناه لما نظر اليها فجأة ، وان زيدا طلقها له ليتزوجها الى غير ذلك من اقاويلهم المتجنية الخبيثة وابدوا واعادوا في نشر هذه الدعايات والاقاويل حتى لم يسلم منها الكثير من المسلمين انفسهم ، وتركت طابعها على الكثير من الرّوايات التي ساقها المحدثون والمفسرون عن زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب رضي الله عنها ، ليس هذا مجل الخوض في تفنيدها · (٢) والذي يهمنا هنا في هذه الحادثة ان نشير الى نقطة واحدة جديرة ان تستلفت نظر الباحث في دور المنافقين · فقد ظهر انهم كانوا يكونون رأيا عاما كان الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه يخشاه ويحسب له حسابا يصوره لنا القرآن في قوله تعالى :«وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» · والمقصود بالناس هنا اليهود والمنافقين ان يقولوا تزوج امرأة ابنه·

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ : ٦٠٣

(٢) انظر حول هذا الموضوع ، عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، وكذلك كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسنين هيكل : الفصل السابع عشر (ص٣١٥ ـ ٣٢٦) الذي ناقش في الموضوع ببعض التفصيل ـ على ان لنا على الكتاب في مجمله بعض التحفظات ·

وقد ورد في الروايات انهم قالوا ذلك(١) · وقد حسم الله سبحانه وتعالى ذلك كله بما شرعه لنبيه صلى الله عليه وسلم من زواجه لزينب بعد ان طلقها زيد : «فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكونَ عَلَىٰ المؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولا»(٢) ·

وهذه المشاعر التي كانت تتجاذب الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه هذه القضية والتي يعبر عنها الوحي في قول الله سبحانه وتعالى : «وتخشى الناس ·والله احق ان تخشاه» توضح مدى التأثير الضخم الذي تفرضه تعليقات المنافقين واليهود ووساوسهم التي كانت تتحين المناسبات والوقائع لتضفي عليها من تصوراتها المريضة المريبة ما يسعى الى اشاعة روح الاختلال الاخلاقي في المجتمع المسلم الطاهر النظيف ··

وكذلك شأن اللئام من مرضى النفوس اذا رأوا محاسن غيرهم ومساوىء انفسهم ، وعلموا ان محاسنه هي السر في تقدمه ورقيه ، وان مساوئهم ومواضع الضعف والانحلال فيهم هي التي تضع من شأنهم وتسبب لهم الهزيمة والهوان انصرفوا بكل همهم الى ان يخلقوا في ذلك المجتمع النظيف الطاهر ـ بأي حيلة من الحيل وبمختلف الوسائل ما في انفسهم من اساليب الضعف والمساوىء والفوضى ، وان يرموه بما ليس فيه ويدنسوا ذيله ويشوهوا سمعته فهذه العقلية هي التي حولت مساغي اعداء الاسلام الى محاولة خلق ثغرات الضعف من داخله ـ وقد كان القيام بهذا الدور اسهل من الداخل وكان اقدر الناس على تجنيد امكانياتهم ومؤهلاتهم الطبيعية له هم «المنافقون» وحلفاؤهم من اليهود · وقد اثار هؤلاء ما اثاروا في شأن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضي الله عنها · ولم يمض وقت طويل تحولوا الى ما هو اشد واعظم عندما احدثوا قصة الافك واستوشوها وتداولوها واثاروا حولها ما اثاروا من الضجيج الذي هز الجماعة الاسلامية هزا عنيفا في الوهلة الاولى ···

ونسرد هنا قصة الافك كما حكاها ابن القيم الجوزية في زاد المعاد ، قال: «وذلك ان عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في هذه الغزوة (غزوة بني المصطلق) بقرعة اصابتها وكانت تلك

---

(١) الواحدي : اسباب النزول : ٣٧٠ ، السيرة الحلبية ٢ ـ ٤٨٥
(٢) سورة الاحزاب : ٣٧

عادته مع نسائه ، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل فخرجت عائشة لحاجتها ففقدت عقدا لاختها كانت اعارتها اياه ، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها ، فجاء النفر الذين يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج ولا ينكرون خفته ، لانها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها · وايضا فان النفر لما تساعدوا حمل الهودج لم ينكروا خفته ولو كان الذي حمله واحدا او اثنين لم يخف عليهما الحال ، فرجعت عائشه الى منازلهم وقد اصات العقد فاذا ليس بها داع ولا مجيب ، فقعدت في المنزل وظنت انهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها ـ والله غالب على امره يدبر الامر فوق عرشه كما يشاء ـ فغلبتها عيناها فنامت فلم تستيقظ الا بقول صفوان بن المعطّل : انا لله وانا اليه راجعون ، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! وكان صفوان قد عرس (١) في اخريات الجيش لانه كان كثير النوم كما جاء عنه في صحيح ابي حاتم وفي السنن · فلما رأها عرفها وكان يراها قبل نزول الحجاب ، فاسترجعواناخ راحلته فقربها اليها فركبتها وما كلمها كلمة واحدة ، ولم تسمع منه الا استرجاعه ، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها وقد نزل الجيش في نحر(٢) الظهيرة ، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته وما يليق به · ووجد الخبيث عبدالله بن أبي متنفسا فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه ، فجعل يستحكي الافك ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه ، وكان اصحابه يتفرقون به اليه»(٣) ·

وجاء في السيرة الحلبية ان عبدالله بن ابي كان اول من اشاع حديث الافك في العسكر · فانه كان ينزل مع جماعة من المنافقين مبتعدين عن الناس فمرت عليهم فقال : من هذه ؟ قالوا : عائشة وصفوان ! فقال : فجر بها ورب الكعبة ! وفي لفظ : ما برئت منه وما برىء منها · وفي لفظ والله ما نجت منه ولا نجا منها وصار يقول : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى اصبحت · ثم اشاع ذلك في المدينة بعد دخولهم لها لشدة عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ·· والذي في البخاري ان عبدالله بن ابي «كان يتحدث بالافك ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه»(٤) ·

---

(١) عرس : نزل في اخر الليل للاستراحة · قاموس (عروس) ٢ ـ ٢٣٨ ·
(٢) نحر الظهيرة : اولها · قاموس : (نحر) ٢ ـ ١٤٤
(٣) ابن القيم : ج ٢ ـ ١١٣
(٤) السيرة الحلبية ٢ ـ ٦٠٧

وقد كان واضحا عند الصفوة من المسلمين ان الامر لا يعدو ان يكون من تلفيق المنافقين وكذبهم · قال ابن اسحق : حدثني ابي اسحقبن يسار عن بعض رجال بني البخار ان ابا ايوب خالد بن زيد قالت له امراته ام ايوب : يا ابا أيوب ، الا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذب ، اكنت يا ام أيوب فاعلة ؟ قالت : لا والله ما كنت لا فعله ، قال : فعائشة والله خير منـك(١) ·

قال ابن القيم : «وقد اقتضى تمام الابتلاء والامتحان ان حبس الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهرا في شانها لا يوحى اليه في ذلك شيء لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه ، ويزداد المؤمنون الصادقون ايمانا وثباتا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله واهل بيتهوالصديقين من عباده ويزداد المنافقون افكا ونفاقا ويظهر لرسولـه وللمؤمنين سرائرهم» (٢) ·

وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم ـ عند استلبات الوحي وتأخره ـ فخطب الناس فقال بعد ان حمد الله واثنى عليه « ايها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في اهلي ويقولون عليهم غير الحق» وفي رواية : فاستعذر من عبدالله ابن أبي بن سلول فقال وهو على المنبر : «من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في اهل بيتي ، والله ما علمت على اهلي الا خيرا · ولقد ذكروا رجلا ـ يعني صفوان ـ ما علمت عليه الا خيرا ، ولا يدخل بيتي ـ وفي لفظ ـ بيتا من بيوتي الا وانا حاضر · ولا غبت في سفر الا غاب معي ، يقولون عليه غير الحق»(٣) فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة قال أسيد بن حضير : يا رسول الله ، ان يكونوا من الاوس نكفكهم وان يكونوا من اخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله انهم لاهل ان تضرب اعناقهم »فقام سعد بن عبادة فقال : كذبت لعمر الله ، لا تضرب اعناقهم ، اما والله ما قلت هذه المقالة الا انـك عرفت انهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا · فقال اسيد · كذبت ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين · وتساور الناس حتى كاد يكون بين الحيين من الاوس والخزرج شر(٤) ·

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣ : ٧٦٩
(٢) زاد المعاد : ٢ ـ ١١٤
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣ : ٧٦٧ ، السيرة الحلبية ٢ : ٦١٥
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣ ـ ٧٦٧

لقد ذكرت الروايات ان الذي تولى ترويج حديث الافك عبدالله بن أبـــي في رجال الخزرج ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وقد ورد أنه لما نزل الوحي ببراءة عائشة رضي اللهعنها ، امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن صرح بالافك فجلدوا ، وهم رجلان وامرأة ، اما الرجلان فهما مسطح بن اثاثة ، وعبيدالله بن جحش ، ويقال له أبو أحمد وكان ضريرا ، اما المرأة فهي حمنة بنت جحش ، وقد وقعت في محنة الافك لانها كانت تضاد عائشة رضي الله عنها ، لاختها زينب بنت جحش فأصابها ما اصابها (١) ٠

وقد ثبت ان عبدالله بن أبي لم يحد في هذه الحادثة ، وتعددت الاراء في تفسير ذلك وبيان سببه ، وسنرجع للحديث في هذا في فصل لاحق ٠ انما الذي يهمنا هنا هو ان ابن أبي كان وراء هذه الفتنة المنكرة ، هو الذي بدأها وَجَرَّأَ الناس عليها ، وكان كما قال ابن القيم : «يستحكي الإفْكَ ويستوشيه ويشيعه ويذيعه ويجمعه ويفرقه وكان اصحابه يتقربون به اليه»(٢) ٠

والذي نسعى اليه هنا هو كشف اساليب المنافقين وطرائقهم في الشغب على المسلمين واشاعة الفوضى والاضطراب داخل كيان الجماعة الاسلامية ، على انه ينبغي ان يتنبه الدارس الى ان هذا الحادث وكل حوادث الســـيرة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مما عالجه القرآن وحكم فيه الوحي انما هو في حقيقته مرحلة من مراحل البناء الذي كانت تصاغ من خلالـــه شخصية الجماعة الاسلامية في مجالات العقيدة والتشريع والتربية ٠٠ وقد تميز بناء المجتمع الاسلامي بأنه مجتمع صنع في واقع الحياة المتحركة ومن خلال حياة ذلك الجيل الاول وتفاعلاتها ـ وقد كان في هذه الحوادث كلهـــا منطلق لتشريعات وتوجيهات عظيمة النفع خالدة التأثير اضحت فيما بعـــد جزءا من بناء الاسلام في احكامه ومثله وادابه ٠٠ فقد نزل الوحي بســورة النور التي شملت اعظم التشريعات والتوجيهات في نطاق الحياة الاجتماعية والاخلاقية ، ليس هنا موضع الحديث فيها ، ولكن نشير على القارىء بالرجوع الى الدراسات المتخصصة لاستجلاء هـذه التشريعـات والوقـوف علـــى تفاصيلهـــا (٣) ٠

---

(١) المصدر السابق
(٢) ابن القيم : زاد المعاد : ٢ : ١١٣
(٣) يراجع في ذلك كتب التفسير : تفسير سورة النور ٠ وكتاب تفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي ٠

وبعد أن ألمحنا الى ذلك الدور الذي استهدف به المنافقون البناء الاخلاقي للجماعة الاسلامية في شخص عائشة رضي الله عنها زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم واحب نسائه اليه وبنت أبي بكر الصديق صاحب رسول الله وعضده ووزيره ، فكانت هذه الحملة في حقيقتها تستهدف قيادة الجماعة الاسلامية في شخصيتيها الاوليين ٠٠٠٠ وهي لعمري حملة تحمل في طياتها خبث النفاق ولؤم اصحابه وجراءتهم على الاذى والشر ٠٠ اقول نعود بعد هذا لنتابع بقية المواقف التي كان يغلي بها مرجل النفاق بين حين واخر ٠٠ وهي اذا استثنينا ما سبق وعرضناه في حادثة الافك ، وما تكلموا به في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش ٠ تتداخل ما بين نكوص عن الجهاد وتوهين للمسلمين ، وتحريض لاعداء الاسلام من يهود وغيرهم ومؤازرتهم على حرب الاسلام ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ورفض لنبوته ٠ بل بلغت في بعض المواقف الى محاولة طرح النبي صلى الله عليه وسلم عن راحلته لغرض قتله ٠٠ ولنعرض لبعض تلك المواقف التي تجسم مظاهر هذا الصراع المتصل المستمر :

ففي غزوة الحديبية ٠ عندما عزم عليه السلام على العمرة ، واتجه قاصدا مكة ، استنفر العرب ومن حوله من اهل البوادي من الاعراب ٠ ممن اسلم من غفار ومزينة وجهينة واسلم ـ خشية من قريش ان يحاربوه وان يصدوه عن البيت ـ فتثاقل كثير منهم وقالوا : انذهب الى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا اصحابه فنقاتلهم ـ واعتلوا بالشغل بأهاليهم واموالهم وانه ليس من يقوم بذلك» (١) ٠ وقد نزل الوحي بتكذيبهم في اعتذارهم بقوله تعالى : **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**»(٢) ٠

ومن المواقف المتخاذلة في هذه الغزوة موقف الجد بن قيس الذي تخلف عن بيعة الرضوان ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فقد ذكر ابن اسحق ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه ان عثمان قد قتل (وكان قد بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم الى أبي سفيان واشراف قريش ، يخبرهم انه لم يأت لحرب ، وانه انما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته ، فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قد قتل) فقال صلى الله عليه وسلم حين بلغه ذلك : لانبرح حتى نناجز القوم ٠ فدعا صلى الله عليه

---

(١) السيرة الحلبية : ٢ : ٦٨٩
(٢) آل عمران : ١٦٧

وسلم الناس الى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة · ولم يتخلف عنه احد من المسلمين حضرها الا الجد بن قيس ، أخو بني سلمة فكان جابر بن عبدالله يقول : والله لكأني انظر اليه لاصقا بإبط ناقته قد ضبأ(١) اليها يستتر بها من الناس(٢) ·

وفي غزوة خيبر ، استنفر رسول الله صلى الله عليه وسلم من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه ـ وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة ، فقال : لا تخرجوا معي الا راغبين في الجهاد فاما الغنيمة فلا تعطوها(٣) ··· وقد عاد عبدالله بن ابي في هذه الغزوة الى موقفه المعهود من مؤازرة اليهود وتحذيرهم · فقد ذكر انه ارسل الى يهود خيبر «ان محمدا سائر اليكم فخذوا حذركم وادخلوا اموالكم حصونكم ، واخرجوا الى قتاله ولا تخافوا منه ، ان عددكم كثير وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم الا قليل ··»(٤) ·

وقدتوالت انتصارات المسلمين بعد هذا فهم من نصر الى اخر ومن فتح الى فتح وكان الفتح الاعظم وما تبعه من انتصارات على هوازن وغيرها ··· ولم يبد من المنافقين في هذه الفترة حتى غزوة تبوك ، الا بعض المواقف التي تعكس ضغائنهم وامراض نفوسهم ·· فحينما انهزم المسلمون في حنين تكلم رجال من اهل مكة بما في نفوسهم من الضعف ومنهم ابو سفيان بن حرب ، وكان اسلامه بعد مدخولا ، فقال : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر · ووصلت اخبار الهزيمة الى مكة ، وسر بذلك قوم من مكة واظهروا الشماتة ـ وقال قائل منهم : ترجع العرب الى دين ابائها وقال اخر ، وهو اخ لصفوان بن امية من أمة : الا قد بطل السحر اليوم(٥) وهي مظاهر لحسد صدورهم الذي يتردد فيها من الضغن والنفاق ···

ومن ذلك ما كان من كلامهم في قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم للغنائم : ففي قسم غنائم حنين قال بعض المنافقين : (قيل : وهو معتب بن قشير)

---

(١) ضبأ اليها : لصق بها واستتر ·
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٣ ـ ٧٨٠ ـ ٧٨١
(٣) السيرة الحلبية ٢ ـ ٧٢٦
(٤) المصدر السابق : ٢ ـ ٧٣٠ ·
(٥) السيرة الحلبية ٣ : ٧٠

«هذه القسمة ما عدل فيها ولا أُرِيدَ بها وجه الله» · فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغير وجهه الشريف وغضب غضبا شديدا وقال : «ومن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخي موسى عليه السلام · لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر ··»(١) ·

وفي رواية ابن اسحق يسندها الى عبدالله بن عمرو بن العاص : قال : جاء رجل من بني‌تميم يقال له ذو الخويصرة فوقف عليه (أي على الرسول صلى الله عليه وسلم) وهو يعطي الناس (يوم حنين) فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل، فكيف رأيت ؟ فقال لم ارك عدلت قال : فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : ويحك ، اذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، ألا أقتله ؟ فقال لا ، دعه فانه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية ، ينظر في النصل فلا يوجد شيء ثم في القدح ، فلا يوجد شيء ، ثم في الفوق فلا يوجد شيء ، سبق الفرث والدم»(٢) ·

ثم كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع ففضحت دخيلة المنافقين وأظهرت حال كثير منهم ، وكان يقال لها الفاضحة لذلك(٣) ·

وقد كانت الغزوة في زمن عسرة من الناس وجدب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون شخوصهم على تلك الحال من الزمان الذي هم عليه ـ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها وأخبر انه يريد غير الوجه الذي يصمد له الا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة

---

(١) المصدر السابق : ٣ ـ ٨٧

(٢) المصدر السابق : ٣ ـ ٨٧ ، السيرة النبوية لابن هشام : ٤ ـ ٩٣٣ · وهذا الاثر رواه البخاري في صحيحه (الفتح ٦ : ٤٥٥) ومسلم في صحيحه ٧ : ١٦٥ من طريق الزهري عن ابي سلمة بن عبدالرحمن وجاء الخبر عن طريق صحاح كثيرة · وفي رواية عن قتادة ان الذي قال ذلك رجلا من اهل البادية حديث عهد باعرابية ولم يبينه ·

(٣) السيرة الحلبية : ٣ ـ ٩٩

العدو الذي يصمد له ليتأهب الناس لذلك اهبته ، فأمر الناس بالجهـــاز واخبرهم انه يريد الروم(١) ٠

وقد ظهر نكوص المنافقين وتخاذلهم في هذه الغزوة في اكثر من صورة : فحين التجهز للغزوة قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم للجد بن قيس، احد بني سلمة : يا جد ، هل لك العام في جلاد بني الاصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، او تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي انه ما من رجل اشـــد عجبا بالنساء مني ، واني اخشى اذا رأيت نســـاء بني الاصفر الا اصبر ٠ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك(٢) ٠

وتذكر الرواية ان ابنه عبدالله لامه على ذلك وقال له : «والله ما يمنعك الا النفـــاق ـ وسينزل فيك قرآنا ٠»(٣) وفي الجد بن قيس هذا نـــزل قولـــه تعالى : «وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ ٱئذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »(٤) ٠

وقد تقدمت الاشارة الى ان الجد بن قيس لم يبايع بيعة الرضوان(٥) ٠ ويذكر عنه انه تاب من النفاق وحسنت توبته ٠

وفي هذه الغزوة قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا في الحر٠ زهادة في الجهاد وشكا في الحق ، وارجافا برسول الله صلى الله عليـــه وسلم (٦) ٠ وانبعث الحلف الاثم بين المنافقين واليهود من جديد ، فكانوا يجتمعون لينفثوا سمومهم ويرجفوا بالمسلمين تثبيطا لهم وهزا لمعنوياتهم ٠ وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ناسا من المنافقين يجتمعون فـــي بيت سويلم اليهودي ، وكان بيته عند جاسوم ، يثبطون الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فبعث اليهم صلى الله عليه وسلم طلحة ابن عبيدالله في نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ٠ ففعـــل طلحـــة ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجلـــه ، واقتحم أصحابه فافلتوا (٧) ٠

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤ ـ ٩٤٣ ، السيرة الحلبية ٣ ـ ٩٩ ـ ١٠٠
(٢) ابن هشام : السيرة : ٤ ـ ٩٤٤ ، الحلبية : ٣ ـ ١٠٣
(٣) السيرة الحلبية : ٣ ـ ١٠٣
(٤) سورة التوبـة : ٤٩
(٥) انظر ما سبق ص ٤٦
(٦) ابن هشام : السيرة : ٤ ـ ٩٤٤ ، السيرة الحلبية : ٣ ـ ١٠٣
(٧) المصدر السابق ٣ـ١٠٣ ، ابن هشام : السيرة تحقيق السقا وآخرون : ٤ : ١٦٠

وجاء المعذّرون من الأعراب ، وهم الضعفاء والمقلون منهم ، ليؤذن لهم في التخلف ـ فأذن لهم عليه السلام · وكانوا اثنين وثمانين رجلا (ولم يعذرهم الله تعالى) وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر ولاعلة جراءة على الله ورسوله ···(١)

ولما عزم الرسول عليه السلام على الخروج ضرب عسكره على ثنية الوداع وأبى ابن أبي الا أن يعاود عادته القديمة في انتحال الرئاسة ومساماة الرسول عليه السلام في الزعامة ، فضرب عسكره على حدة اسفل من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين · فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبدالله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب(٢) ·

وقال عبدالله بن أبي عند تخلفه : يغزو محمد بني الاصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ـ ما لا طاقة له به ـ يحسب محمد ان قتال بني الاصفر معه اللعب ـ والله لكاني انظر الى اصحابه مقرنين في الحبال · يقول ذلك ارجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه(٣) ·

وذكر ابن اسحق ان رهطا من المنافقين منهم وديعة بن ثابت اخو بني عمرو ابن عوف ، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشن بن حمير يشيرون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق الى تبوك فقال بعضهم لبعض : اتحسبون جلاد بني الاصفر كقتال العرب بعضهم بعضا · والله لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال · ارجافا وترهيبا للمؤمنين ·· فقال مخشن ابن حمير : والله لوددت اني أقاضى على ان يضرب كل واحد منامئة جلدة وانا ننفلت ، ان ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه · وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر : ادرك القوم فانهم احترقوا فسلهم عما قالوا · فان انكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا · فانطلق اليهم عمار فقال لهم ذلك فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون اليه ، فقال وديعة بن ثابت ، ورسول صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته ، فجعل وهو يقول وهو اخذ بحقبها : يا رسول الله ، انما كنا نخوض ونلعب ·· فأنزل الله عز وجل : «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ» ـ الآيات (٤)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٤ : ٩٤٦ ، السيرة الحلبية ٣ : ١٠٤
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٤ : ٩٤٦
(٣) السيرة الحلبية : ٣ : ١٠٢
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤ ـ ٩٥١ ـ ٩٥٢

ولم يترك المنافقون فرصة يؤذون بها الرسول والمسلمين الا فعلوا · ففي هذه الغزوة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، على أهله ، وأمر بالاقامة فيهم · فارجف به المنافقون وقالوا :

ما خلفه الا استثقالا له وتخفيفا منه ·· فلما قال المنافقون ذلك اخذ علي ابن أبي طالب رضي الله عنهسلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال : يا نبي الله ، زعم المنافقون انك انما خلفتني أنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك · أفلا ترضى يا علي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي فرجع علي الى المدينة ··(١) ·

وقد تخلف نفر من المسلمين على غير شك ولا ريب ، منهم كعب بن مالك ابن أبي كعب ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وأبو خيثمة مالك بن قيس · اما ابو خيثمة فقد لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم · ولم يلحق الاخرون ولم يعتذروا بشيء وتابوا الى الله تعالى فتاب عليهم بعد تمحيص ومحنة شديدين(٢) ·

وقد قال ابو خيثمة شعرا يصور فيه حاله وما كان منه وما عليه اهل النفاق ذكر منه ابن هشام هذه الابيات (٣) :

لَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ فِي الدِّينِ نَافَقُوا ... أَتَيْتُ الَّتِي كَانَتْ أَعَفَّ وَأَكْرَمَا
وَبَايَعْتُ بِالْيُمْنَى يَدِي لِمُحَمَّدٍ ... فَلَمْ أَكْتَسِبْ إِثْمًا وَلَمْ أَغْشَ مَحْرَمَا
تَرَكْتُ خَضِيبًا فِي الْعَرِيشِ وَصِرمَةً ... صَفَايَا كِرَاما بُسْرُهَا قَدْ تَحَمَّمَا(٤)
وَكُنْتُ إِذَا شَكَّ الْمُنَافِقُ أَسْمَحَتْ ... إِلَى الدِّينِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثُ يَمَّمَا(٥)

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤ : ٩٤٦ ـ ٩٤٧ .
(٢) المصدر السابق : ٤ ـ ٩٥٧ ـ ٩٦٤ .
(٣) المصدر السابق : ٤ : ٩٤٨ .
(٤) الخضيب : المخضوبة · والصرمة : جماعة النخل ، وصفايا :كثيرة الحمل ، وأصله في الإبل واستعاره هنا للنخل · والبسر : التمر قبل ان يطيب · وتحمما : أي أخذ في الارطاب فاسودّ ·
(٥) اسمحت نفسي : انقادت ، وشطره : قصده وناحيته ·

وفي منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، كان مـا هم به نفر من المنافقين من طرح رسول الله صلى الله عليه وسلم من العقبـة يريدون قتله ٠

قال ابن القيم الجوزية في زاد المعاد(١) : ذكر أبو الاسود في مغازيه عن عروة قال : ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك الـى المدينة حتى اذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من المنافقين فتآمروا ان يطرحوه من عقبة في الطريق ، فلما بلغوا العقبة ارادوا ان يسلكوها معه فلما غشيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اخبر خبرهم فقال : من شاء منكم ان يأخذ ببطن الوادي فهو اوسع لكم وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة ، وأخذ الناس ببطن الوادي الا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم ٠ وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان وعمار بـن ياسر فمشيا معه ٠ وأمر عمارا أن يأخذ بزمام الناقة وأمر حذيفة بسوقهـا ، فبينما هم يسيرون اذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وامر حذيفة ان يردهم ٠ وابصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع ومعه محجن واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن ، وابصر القوم وهم متلثمون ولا يشعر الا ان ذلك فعل المسافر٠ فأرعبهم الله سبحانه حين ابصروا حذيفة وظنوا ان مكرهم قد ظهر عليـه فأسرعوا حتى خالطوا الناس واقبل حذيفة حتى ادرك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما ادركه قال : اضرب الراحلة يا حذيفة وامش انت ياعمار ، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس٠فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة : هل عرفت من هؤلاء الرهط او الركب أحدا ؟ قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون ٠ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل علمتم ما كان شأن الركب وما ارادوا ؟ قالوا : لا والله يا رسول الله ٠ قال : فانهم مكروا ليسـيروا معي حتى اذا طلعت في العقبة طرحوني منها» ٠

وقد ذكر النص ان عدد أولئك النفر اثنا عشر رجلا ، ذكر أسماءهـم جميعا وذكر منهم عبدالله بن أبي وسعد بن أبي سرح وأبا عامر ٠ وقد اعترض ابن القيم اعتراضا وجيها على وجود هؤلاء بالذات بين أولئك النفر وعلى معرفة اسماء اولئك النفر كلهم لغير حذيفة وقد استند في اعتراضه ذلك الى أسباب :

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ : ٩ ٠

أولا : ان النبي صلى الله عليه وسلم أَسَرَّ بأسماء أولئك المنافقين الى حذيفة وحده ، وكان يقال له «صاحب السر» لذلك ، وان جلة الصحابة امثال عمر لم يكونوا يعرفون احدا من المنافقين ، وكان عمر يعرفهم اذا تخلف حذيفة عن حضور جنازة احدهم ٠

ثانيا : ان الروايات تجمع على تخلف عبدالله بن ابي عن هذه الغزوة فايراد اسمه فيهم خطأ ظاهر ٠

ثالثا: ان من بين ذكر فيهم سعد بن أبي سرح وهو رجل لم يعرف له اسلام البتة ٠

رابعا : جاء في النص ان رأسهم كان ابو عامر الفاسق ـ ومعروف ان ابا عامر قد ترك المدينة لما هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب الى مكة ، فلما فتح الله مكة لنبيه خرج الى الطائف ، فلما اسلم اهل الطائف خرج الى الشام محاربا لله ورسوله فمات بها شريدا طريدا ٠٠(١) ٠

وقد ذكر الرواة نفرا ممن اشرنا اليهم انفا انهم هموا بطرح الرسول صلى الله عليه وسلم من العقبة ، وذكروا اقوالا اثرت عنهم تدل على نفاقهم وتأصل الشر فيهم ٠ ونحن نثبت هذه الاقوال فيما يلي ـ وان لم يتأكد لدينا انهم من اصحاب العقبة اوقالوها في هذه المناسبة ، فالغالب في شأن اصحاب العقبة من المنافقين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اراد ان يبقي امرهم سرا وائتمن عليه حذيفة ـ فكان امينا حافظا لسر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولا يبعد ان يكون هؤلاء النفر قد قالوا ما قالوا في هذه المناسبة او غيرها ـ وهي تكشف صورا من عداء المنافقين للرسول عليه السلام ومدى تمكن ذلك من نفوسهم : فقد ذكر النص(٢) ان منهم الجلاس بن سويد بن الصامت ، وهو الذي قال : لا ننتهي حتى نرمي محمدا من العقبة الليلة ٠ وان كان محمد واصحابه خيرا منا انا اذا لغنموهو الراعي ٠ ولا عقل لنا وهو العاقل(٣) ٠ ومنهم مجمع بن حارثة ومليح التيمي ٠ وهو الذي سرق طيب الكعبة وانطلق محاربا في الارض فلا يدري اين يذهب ٠ وحصن بن نمير الذي اغار على تمر الصدقة فسرقه ٠ وطعيمة بن ابيرق وعبدالله بن عيينة ، وهو

---

(١) زاد المعاد : ٣ ـ ٩

(٢) المصدر السابق

(٣) انظر ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ ـ ٣٦٣ ٠ وينص هناك على ان جلاسا كان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ٠

الذي قال لاصحابه : اسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله ، فوالله مالكم امر دون ان تقتلوا هذا الرجل · ومرة بن الربيع الذي قال : نقتل الواحد الفرد فيكون الناس عامة بقتله مطمئنين(١) · والجد بعضهم

فهذا التآمر على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أقصى ما بلغه هؤلاء المنافقون في حربهم لله ورسوله ومعاندتهم للمسلمين ـ وقد كان الوحي يكشف اضغانهم وما بيتوا من كيدهم وشرورهم كلما هموا بشيء من ذلك ·

وقد تميزت ملامح النفاق ومظاهره حتى بات ذلك معروفا لدى المسلمين بل انهم كانوا يعرفون المنافقين في بيوتهم وأُسرهم وعائلاتهم ·

قال ابن اسحق : حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رجال من بني عبد الاشهل قال : قلت لمحمود : هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم ؟ قال : نعم ، والله ان كان الرجل ليعرفه من اخيه ومن ابيه ومن عمه ومن عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضا على ذلك (٢) ·

وقد كان المنافقون في اغلب امرهم يقومون بدور الطابور الخامس الذي يحاول عرقلة الجيش واشاعة الفوضى فيه من الداخل · وقد حاولوا في بعض الاحيان ان يكون لهم كيان متميز يفرقون به بين صفوف المسلمين ويشغبون به عليهم ، وكان أظهر مواقفهم في ذلك بناؤهم مسجد الضرار وقد رُوِيَ سببان في بناء هذا المسجد :

الاول : ان بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء حسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا : نصلي في مربط حمار ! لا لعمر الله (وبقعة مسجد قباء كانت لامرأة ترتبط فيها حمارها) ولكنا نبني مسجداً ونرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه ، ويصلي فيه ابو عامر الراهب اذا قدم من الشام فيثبت لنا الفضل والزيادة ·

الثاني : إن أبا عامر الراهب ـ الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الفاسق ـ هو الذي أمر ببناء المسجد وقال لهم : ابنوا لي مسجدا

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد : ٣ : ٩

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤ : ٩٤٩

واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة(١) ٠

فلما بنوه اتوه صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز الى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وانا نحب ان تاتينا فتصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ٠ فقال : اني على جناح سفر وحال شغل ولو قدمنا ان شاء الله تعالى لاتيناكم فصلينا لكم فيه ٠ واقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك حتى نزل بذي اوان وبينها وبين المدينة ساعة فجاءه خبر المسجد من السماء ، فدعا صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ، اخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدى او اخاه عاصم بن عدي اخا بني العجلان ، فقال : انطلقا الى المسجد الظالم اهله فاهدماه وحرقاه ٠ فخرجا سريعين حتى اتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم ، فاخذ مالك سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه اهله ٠ فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل(٢) : «**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين**٠٠»(٣) وبذلك قضى رسول الله صلى اللهعليه وسلم في المهد ، على هذه الجرثومة التي ارادت ان تسن اسباب الفرقة بين المسلمين ، وان تفتح المجال امام نعرات التزايد بأمور الدين التي وكل الله امرها الى رسوله عليه السلام وحده ، ولم يترك فيها مجالا للهوى ودوافعه ٠

وقد ذكر الله سبحانه ان الباعث لهم على بناء هذا المسجد اربعة امور : الاول : الضرار لغيرهم ٠ الثاني : الكفر بالله والمباهاة لاهل الاسلام، لانهم ارادوا ببنائه تقوية اهل النفاق ٠ الثالث : التفريق بين المؤمنين ، لانهم ارادوا ان لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الالفة ما لا يخفى ٠ والرابع : الارصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي الاعداد لاجل من حارب الله ورسوله(٤) ٠ وذلك قوله تعالى :

---

(١) الزمخشري : الكشاف : ٢ : ٣١٠ ، ابن هشام : السيرة النبوية : ٤ : ٩٥٦ ، السيرة الحلبية : ٣ : ١٢٢ ، ابن القيم : زاد المعاد : ٣ : ٩ ـ ١٠
(٢) السيرة النبوية : ابن هشام : تحقيق السقا وآخرون ج ٤ : ١٧٣ ـ ١٧٤ ٠
(٣) التوبة : ١٠٧
(٤) الشوكاني ،محمد بن علي : فتح القدير : ٢ : ٤٠٣

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وتفريقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»(١)

ويذكر ابن اسحق ان الذين بنوه اثنا عشر رجلا هم : خذام بن خالد ، ومن داره خرج المسجد ، وثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وابو خبيبة بن الازعر ، وعباد بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وابناه مجمع بن جارية وزيد بن جارية ، ونبتل بن الحارث ، وبخرج ، وبجاد بن عثمان ووديعة بن ثابت(٢)

والذي عرضناه من مواقف المنافقين فيما سبق يمثل ما نستطيع ان نسميه مواقف جماعية ـ او تحركا جماعيا ، اخذ ذلك الطابع الجماعي العام للتأثير في حركة الجماعة الاسلامية الناشئة · ولا شك انه من المفيد للبحث ان نستعرض هنا صورا مقربة من مواقف المنافقين حتى يكون تقييمنا «لموقف» المنافق او «كلامه» اكثر وضوحا عندما نعرضه في اطار المحدد وفي ظروفه وملابساته الواقعية ···

وقد سبقت الاشارة الى ان الناس كانوا يعرفون النفاق بعلامات وتصرفات تكشف اصحابها وتفضحهم حتى ان الرجل «ليعرفه من اخيه ومن ابيه ومن عمه ومن عشيرته» ·

وقد جمع ابن اسحق قدرا صالحا من مواقف المنافقين وذكر اسماء عدد منهم في فصل خاص تحدث فيه عنهم(٣) · فمنهم زوي بن الحارث ، وجلاس بن سويد بن الصامت واخوه الحارث بن سويد بن الصامت ·

وجلاس هو الذي قال ـ وكان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ـ : «لئن كان هذا الرجل صادقا لنحن شر من الحمر» فرفع ذلك من قوله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمير بن سعد ، وكان في حجر جلاس ، خلف جلاس على امه بعد ابيه ، فقال له عمير بن سعد : والله يا جلاس · انك لاحب الناس الي واحسنهم عندي يدا واعزهم على ان يصيبه شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لافضحنك ، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني ، ولاحداهما ايسر علي من الاخرى ·· ثم مشى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال جلاس ، فحلف جلاس بالله لرسول الله

---

(١) التوبة : ١٠٧
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٤ : ٩٥٦ ـ ٩٥٧
(٣) المصدر السابق : ٢ : ٣٦٣ وما بعدها

صلى الله عليه وسلم : لقد كذب علي عمير ، وما قلت ما قال قال عمير بن سعد · فانزل الله عز وجل فيه «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِه فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيراً لَهُمْ · وَإِنْ يَتَوَلَّوا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابا أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِير»(١) ·
(التوبة : ٧٤)

وكان جلاس بن سويد بن الصامت ـ قبل توبته ـ ومعتب بن قشير ، ورافع بن زيد وبشير بن زيد ، وكانوا يدعون بالاسلام فدعاهم رجال من قومهم من المسلمين في خصومة كانت بينهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعوهم الى الكهان ، حكام اهل الجاهلية · فانزل الله عز وجل فيهم : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوت ، وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً(٢) ·
(النساء : ٦٠)

ومنهم نبتل بن الحارث ، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطانِ فَلْيَنْظُرْ إلى نَبْتَل بْنِ الحَارِثِ» · وكان رجلا جسيما ادلم(٣) ثائر شعر الرأس ، احمر العينين أسفع الخدين · وكان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث اليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين · وهو الذي قال : انما محمد اذن ، من حدثه شيئا صدقه فانزل الله تعالى فيه : «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم ، وَالَّذِين يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم»(٤)
(التوبة : ٦١)

وقد جاءت الرواية ان جبريل عليه السلام ذكر صفة نبتل هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحذره منه · (٥)

---

(١) المصدر السابق : ٢ : ٣٦٣
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ ـ ٣٦٨
(٣) الادلم : الادم والشديد السواد من الناس (دلم) قاموس ٤ : ١٦٤
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ ـ ٣٦٤
(٥) المصدر السابق : ٢ ـ ٣٦٥

وهناك النفر الاثني عشر الذين بنوا مسجد الضرار الذي سبقت الاشارة اليه (١) · ومنهم ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير ، وهما اللذان عاهدا الله «لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين» الخ القصة(٢) · ومعتب ابن قشير هو الذي قال يوم أحد : لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ها هنا · فأنزل الله تعالى قوله في ذلك : «وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ : هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ ، يَقُولُونَ : لَوْكَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا ···»(٣) (آل عمران : ١٥٤)

وهو الذي قال يوم الاحزاب : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب الى الغائط · فأنزل الله عز وجل فيه :

«وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً»(٤) (سورة الاحزاب : ١٢)

ومن بني النبيت ، عمرو بن مالك بن الاوس ، مربع بن قيظي ، وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجاز في حائطه ورسول الله صلى الله عليه وسلم عامد الى أحد : لا أحل لك يا محمد إن كنت نبيا أن تمر في حائطي وأخذ في يده حفنة من تراب ، ثم قال : والله لو أعلم اني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعوه ، فهذا الاعمى أعمى القلب ، أعمى البصيرة · (٢)

وأخوه أوس بن قيظي · وهو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق : يا رسول الله ، ان بيوتنا عورة فاذن لنا فلنرجع اليها · فأنزل الله تعالى فيه : «يَقُولُونَ : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً»(٦) (الاحزاب : ١٣)

---

(١) انظر ما سبق .
(٢) انظر ما ياتي .
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٣٦٥ ·
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٢ ـ ٣٦٥ .
(٥) المصدر السابق : ٢ ـ ٣٦٧ . (٦) المصدر السابق ·

ومن بني ظفر بن الحارث بن الخزرج ، حاطب بن امية بن رافع ، وكان شيخا جسيما قد عسا(١) في جاهليته ، وكان له ابن من خيار المسلمين يقال له يزيد بن حاطب أصيب يوم أحد حتى أثبتته الجراحات فحمل الى دار بني ظفر ، فاجتمع اليه من بها من رجال المسلمين ونسائهم وهو بالموت فجعلوا يقولون له : أبشر يا ابن حاطب بالجنة ٠٠ فنجم(٢) نفاق أبيه يومئذ فجعل يقول : أجل ، جنة والله من حرمل ، غررتم والله هذا المسكين من نفسه(٣) ٠

وقزمان ، حليف لبني ظفر : قال ابن اسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : انه لمن اهل النار ٠ فلما كان يوم احد قاتل قتالا شديدا حتى قتل بضعة نفر من المشركين ٠ فأثبتته الجراحات فحمل الى دار بني ظفر فقال له رجال من المسلمين : ابشر يا قزمان ، فقد ابليت اليوم ، وقد اصابك ما ترى في الله ، قال بماذا ابشر فوالله ما قاتلت الا حمية لقومي فلما اشتدت به جراحاته وآذته أخذ سهما من كنانته فقطع رواهش (٤) يده فقتل نفسه(٥) ٠

ومن بني ظفر ايضا ، أبو طعمة بشير بن أبيرق ، سارق الدرعين الذي انزل الله تعالى فيه : «**وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً**» (٦) ٠ (النساء : ١٠٧)

وقد روي انه سرق درعا من جار له اسمه قتادة بن النعمان في جراب دقيق ٠ فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه ، وخبأها عند زيد بن السمين ، رجل من اليهود ٠ فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما اخذها ، وما له بها علم ، فتركوه واتبعوا اثر الدقيق حتى انتهى الى منزل اليهودي فأخذوها، فقال : دفعها الي طعمة وشهد له ناس من اليهود ٠ فقالت بنو ظفر : انطلقوا بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألوا ان يجادل عن صاحبهم

---

(١) عسا : اسن وولى : ابن هشام : السيرة النبوية : ط٠ السقا وزملائه ٢ : ١٧١ ٠
(٢) نجم : ظهر وطلع ٠
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ ـ ٣٦٧ ٠
(٤) الرواهش : عروق ظاهر الكف ٠
(٥) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ : ٣٦٨ ٠
(٦) المصدر السابق : ٢ ـ ٣٦٧ ٠

وقالوا : ان لم تفعل هلك وافتضح وبرىء اليهودي ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وان يعاقب اليهودي ، وقيل هم أن يقطع يدهفنزلت (الآية) وروي ان طعمة هرب الى مكة وارتد ونقب حائطا بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله(١) ٠

وكان الضحاك بن ثابت احد بني كعب يتهم بالنفاق وحب يهود ٠ وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢) :

مَنْ مبلغ الضحّاك أنَّ عروقه ... أعيتْ على الاسلام ان تتمجدا
اتحب يُهْدَانَ الحِجَازِ ودينهم ... كبدَ الحمار ، ولا تحب محمدا
دينا لعمري لا يوافق ديننا ... ما آستن آل في الفضاء وخوّدا(٣)

وتذكر السيرة ان عددا من احبار اليهود قد اسلموا نفاقا تعوذا بالاسلام وحماية لانفسهم ان ينالهم ما نال اخوتهم ممن حاربوا الله ورسوله منهم سعد ابن حنيف وزيد بن اللصيت ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وعثمان بن أوفى ورافع ابن حريملة ورفاعة بن زيد بن التابوت ٠ وسلسلة بن برهام ، وكنانة بن صورياء(٤) ٠

وزيد بن اللصيت هو الذي قاتل عمر بن الخطاب في سوق بني قينقاع ، وهو الذي قال حين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته(٥)

---

(١) الزمخشري : الكشاف م ١ : ٥٦٢
والخبر ذكره الثعلبي من رواية ابي صالح عن الكلبي عن ابن عباس ٠ نقله الواحدي عن المفسرين في الاسباب (انظر الواحدي : اسباب نزول القرآن : ١٧٣) ورواه الطبري من رواية سعيد عن قتادة ٠ واخرجه الحاكم والترمذي مطولا من رواية محمد بن سلمة عن ابن اسحق عن عاصم بن عمر عن ابيه عن جده قتادة بن النعمان ٠ وقال الترمذي : غريب ، ولا نعلم احدا اسنده عن ابن اسحق الا محمد بن سلمة ٠ ورواه يونس وغير واحد عن ابن اسحق مرسلا ٠٠٠
(٢) السيرة النبوية : ابن هشام : ٢ ـ ٣٦٨
(٣) قوله : ما استن «آل» في الفضاء وخودا : ما آستن : اي ما جرى ٠ والآل : السراب ٠ وخود السراب : اهتز كانه يضطرب ٠ شرح ديوان حسان بن ثابت : عبدالرحمن البرقوقي ط٠ دار الاندلس ١٩٦٦م٠ ٢٠٣ ـ ٢٠٤
(٤) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ ـ ٣٦٩ ـ ٣٧٠
(٥) المصدر السابق : ٢ : ٣٧٠ ، السيرة الحلبية : ٣ ـ ١٠٧

ورافع بن حريملة هو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات : قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين ·· وكذلك رفاعة بن التابوت وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حين هبت عليه الريح وهو قافل من غزوة بني المصطلق فاشتدت عليه حتى اشفق المسلمون منها ـ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تخافوا فانما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار · فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجد رفاعة بن زيد بن التابوت مات ذلك اليوم الذي هبت فيه الريح(١) ·

ومما كان يكشف دخيلة المنافقين وفساد عقيدتهم ما كانوا يتكلمون به اثناء بعض المواقف التي يظهر فيها الله سبحانه وتعالى آياته على يد الرسول صلى الله عليه وسلم · وقد اشرنا في نص سابق الى كلمة زيد بن اللصيت عندما ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متخذا ذلك ذريعة للتكذيب بنبوته عليه الصلاة والسلام ـ وهذا الانكار للمعجزات التي اجراها الله تصديقا لنبيه مسلك اخر يريدون به انكار نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ··

ويذكر الرواة ان المسلمين في طريقهم الى تبوك نزلوا منزلا اصابهم فيه عطش شديد ، فطلب ابو بكر الى الرسول صلى الله عليه وسلم ان يدعو الله ، فدعا الله ورفع يديه فلم يرجعها حتى ارسل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا ما يحتاجون اليه · وذكر بعضهم ان تلك السحابة لم تتجاوز العسكر · وان رجلا من الانصار جاء فقال لاخر متهم بالنفاق : ويحك قد ترى ، فقال : انما مطرنا بنوء كذا وكذا · فأنزل الله تعالى : «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ» (سورة الواقعة : ٨٢) · وقيل : انه قال له : ويحك ، هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة(٢) ·

وقد وقع مثل هذا في الحديبية : فقد نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم باقصى الحديبية على ثمد من ثمادها قليل الماء يتربصه الناس ، ثم لم يلبث الناس حتى نزحوه فاشتكى الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلة الماء وكان الحر شديدا · فنزع صلى الله عليه وسلم سهما من كنانته ودفعه للبراء

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ ـ ٣٧٠
(٢) السيرة الحلبية ٣ : ١٠٧

فقال اغرز هذا السهم في بعض قليب الحديبية ففعل والقليب جاف ، فجاش الماء وفارت البئر كما يفور القدر حتى طمت واستوت بشفيرها يغترفون من جوانبها حتى نهلوا عن اخرهم · وعلى البئر نفر من المنافقين منهم عبدالله بن أبي بن سلول · فقال أوس بن خولي رضي الله عنه : ويحك يا أبا الحباب ، ابعد هذا شيء فقال : اني رأيت مثل هذا · فقال له أوس : قبحك الله وقبح رأيك(١)·

وكانت السياسة التي سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم مع هذه الفئة من الناس هي مداراتهم والاعراض عنهم ـ وكان القرآن يتنزل بما يفضحهم ويكشف مكائدهم ثم يلبسهم المسلمون وهم يعرفون منهم النفاق ، وفساد العقيدة ورغم تحرق نفر من الصحابة ورغبتهم الى الرسول صلى الله عليه وسلم ان يضرب على أيديهم فانه كان يعرض عنهم ويتركهم على حالهم ·

فحين قال عبدالله بن أبي ما قال في غزوة بني المصطلق ، وأشار عمر رضي الله عنه بضرب عنقه قال عليه السلام : كيف يا عمر اذا تحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه !! وعندما طلب ابنه عبدالله بن عبدالله بن ابي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتولى قتل ابيه بنفسه قال : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا (٢) ·

وعندما هم اولئك النفر من المنافقين بطرحه عليه السلام من العقبة · وكشف الله امرهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ، واخبر الرسول عليه السلام اسيد بن حضير بخبرهم وما هموا به قال له اسيد : يا رسول الله ، قد نزل الناس واجتمعوا فمر كل بطن ان يقتل الرجل الذي هم بهذا ، فان احببت فبين أسماءهم ·· والذي بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برؤوسهم·فقال صلى الله عليه وسلم : «**اني أكره ان يقول الناس ان محمدا قاتل بقوم حتى اذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم** · فقال : يا رسول الله ، هؤلاء ليسوا بأصحاب · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **أليس يظهرون الشهادة؟!**

وجاء مثل هذا في قصة ذي الخويصرة التميمي الذي وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم الغنائم فقال : يا محمد قد رأيت ما صنعت

---

(١) المصدر السابق : ٢ : ٦٩٣ ـ ٣٩٤
(٢) انظر ما سبق ·· السيرة الحلبية ج ٣ : ٥٩٩

في هذا اليوم · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **اجـل ، فكيف رأيت ؟** قال : لم ارك عدلت · فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : **ويحك اذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟** فقال عمر رضي الله عنه : الا نقتله ؟ قيل : وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه : «الا اضرب عنقه» ·

قال الامام النووي رحمه الله : ولا تعارض ، لان كل واحد منهما استأذن فيه · ففي مسلم : «فقام اليه عمر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله الا اضرب عنقه ؟ قال : لا ، ثم ادبر ، فقام اليه خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال يـــا رسول الله ، الا اضرب عنقه ؟ قال : لا ، لعله ان يكون يصلي ، قال خالد رضي الله عنه : وكم مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم**»(١) ·

وسوف نناقش بالتفصيل أحكام المنافقين في فصل اخر(٢) · ولكن الذي نريد ان نقرره هنا هو ان المداراة كانت هي الاسلوب الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم مع المنافقين · وان علاج هذه الظاهرة كان يتولاه القرآن بمـا ينزل به الوحي من تتبع لمواقفهم وخبايا نفوسهم بالكشف والفضح ·· وان اعنف مظاهر العقوبة التي تعرض لها هؤلاء كانت في تحريق بيت سويلم اليهودي على النفر الذين كانوا يثبطون المسلمين عن الانبعاث الى غزوة تبوك(٣) ، واخراج عدد من المنافقين وطردهم من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ·

فقد ذكر ابن اسحق ان المنافقين يحضرون المسجد فيستمعون احاديث المسلمين ويسخرون منهم ، ويستهزئون بدينهم ، فاجتمع يوما في المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا ·

---

(١) رواه مسـلم (٣ ـ ١١١)
(٢) انظر ما يأتي.
(٣) انظر ما سبق.

وهؤلاء المنافقون الذين أخرجوا من المسجد هم : عمرو بن قيس ، من بني مالك بن النجار وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية ، أخذه ابو ايوب برجله فسحبه حتى اخرجه من المسجد · ورافع بن وديعة · احد بني النجار · اخرجه ابو ايوب لببه بردائه ثم نتره نترا شديدا ولطم وجهه ثم اخرجه من المسجد وابو ايوب يقول له اف لك منافقا خبيثا ! ادراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

وقام عمارة بن حزم الى زيد بن عمرو ، وكان رجلا طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قودا عنيفا حتى اخرجه من المسجد ، ثم جمع عمارة يديه جميعا فلدمه بهما في صدره لدمة خر منها يقول زيد : خدشتني ياعمارة · فقال عمارة رضي الله عنه : ابعدك الله يا منافق ، فما اعد الله لك من العذاب اشد من ذلك ، فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ·

وقام ابو محمد مسعود بن اوس ، الى قيس بن عمرو بن سهل ، وكان قيس غلاما شابا ، وكان لا يعلم في المنافقين شاب غيره ، فجعل يدفع في قفاه حتى اخرجه من المسجد ·

وقام عبدالله بن الحارث الى رجل يقال له الحارث بن عمرو وكان ذا جمة، فاخذ بجمته فسحبه بها سحبا عنيفا على ما مربه من الارض حتى اخرجه من المسجد · يقول المنافق : لقد أغلظت يا ابن الحارث · فقال له : انك اهل لذلك أي عدو الله لما أنزل الله فيك فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانك نجس ·

وقام رجل من بني عمرو بن عوف الى زوي بن الحارث فأخرجه من المسجد اخراجا عنيفا · وافف منه وقال : غلب عليك الشيطان وامره ·

قال ابن اسحق : فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين ، وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخراجهم(١) ·

لقد حاولنا ان نستعرض في هذا الفصل مظاهر تحركات المنافقين واساليبهم ومن خلال ما سبق ، وما سوف نعرض له في الفصل التالي سوف تتضح طبيعة هذه الفئة واساليبها ووسائلها ···

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية : ٢ : ٣٧٠ ـ ٣٧٢ ·

ونستطيع ان نلمس مما سبق صورة واضحة لطائفة من الناس من المدخولين في عقيدتهم ممن غلبهم تيار الاسلام فلم يقووا على حربه ظاهرا فاثروا التظاهر باعتناقه في علانيتهم مبيتين الكفر في سرائرهم · فهم لا يدخرون وسعا في حربه ، ولا يفوتون فرصة لتوهين المسلمين والاستهزاء بهم واشاعة الفوضى فيهم · تارة بخذلان المسلمين والارجاف بهم وتقوية الاعداء عليهم · وتارة بنشر الاشاعة وقاله السوء في المجتمع المسلم · واخرى بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وانكار نبوته · ومع ذلك كله موالاة اعداء الله ورسوله من المشركين واليهود وموادتهم وتحريضهم على الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين·

★ ★ ★

الفصل الخامس

ظاهرة النفاق في إطار الموازين الإسلامية

ظاهرة النفاق في اطار الموازين الاسلامية

لقد أخرنا هذا الفصل الى هذا الموضع من البحث ليكون القارىء الكريم من دراسته للفصول السابقة صورة عامة لطائفة المنافقين وتحركاتهم ، وسوف يضطرنا البحث الى معاودة الحديث عن الكثير من الوقائع عند الحديث عن مناسبة نزول بعض الآيات القرآنية التي سنعرض لها في هذا الفصل ٠

ومعلوم ان القرآن قد واكب أحداث الرسالة طوال فترة نزول الوحي ٠٠ وقد كان اثناء ذلك يعالج بناء ذلك المجتمع الفريد ويتعهده في فترة النماء الاولى بأسلوب متميز في التربية تعددت فيه اساليب القرآن في عرض المشكلة ومواجهتها وعلاجها ٠٠ فكان في نماذج البشر واصنافهم ومواقفهم في الحياة في تلك المرحلة من تاريخ «الانسان» صدى في القرآن ، يصورها ويتحدث عنها ويحكم فيها ٠ وقد مضى ذلك الجيل من الناس وبقي القرآن بيانا وهدى وميزانا عدلا يقيس عليه الناس في الاجيال المتعاقبة أحوالهم ويلتمسون فيه صلاحهم ٠ ولذلك فسنواجه في الآيات القرآنية التي سنعرضها هنا في الفصول التالية حديثا عن جماعات من الناس كان لها شأن ودور في واقع السيرة ، هي في الحقيقة ، نماذج تطبيقية للتصور الذي تحدده الآيات القرآنية لما اسميناه ظاهرة النفاق ٠ «وحركة النفاق التي بدأت بدخول الاسلام المدينة واستمرت الى قرب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ولم تنقطع في أي وقت تقريبا ، وان تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين ٠٠٠ هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي احداثها ـ وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا ، وورود ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة يدل على ضخامة هذه الحركة واثرها البالغ في حياة هذه الدعوة في ذلك الحين ٠٠٠ ولا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا او تصريحا» ٠

والقرآن في اسلوبه ومنهجه يعالج قضية متكاملة هي قضية الانسان وتبليغه رسالة الاسلام وهدى الله سبحانه وتبصيره الطريق القويم السليم بمنهج متكامل يدل على الحق ويحذر من الباطل ويأمر بالصالح وينهى عن الطالح ٠ ونحن في علاجنا لهذه المسألة على هذه الصورة الجزئية نسعر أننا ننتقص من هذا المنهج القرآني ونظلمه الى حد بعيد ، ولكن عذرنا في هذا

اننا نحاول تسليط الضوء على ظاهرة بعينها · ولكن لن تتضح صورة النفاق حتى تعرض في اطارها الصحيح بعرض الصورة المقابلة ـ صورة الايمـــان العميق والعقيدة الصادقة بكل مقوماتها وايجابياتها وهو امر لا يقوم به مثـل هـذا البحث · وكل ما يطمح اليه هو توجيه القارىء الى اســـتطلاع القرآن نفسه مباشرة وسيرة الرسول عليه السلام وحديثه ، فتلك هي الوسيلة المثلى لاستيعاب المنهج القرآني المتكامل ومعرفة التصور الصحيح لما يعرض له من ظواهر النشاط الانساني في مختلف مجالاته ، ولادراك الحق ومعرفة الهدى الذي اكرم الله به الانسان المسلم وكلفه بتبليغه الى الناس ···

★ ★ ★

لقد سبقت الاشارة الى ان شأن المنافقين انما ظهر وكان له اثر بارز فـي احداث السيرة وفي حياة الجماعة الاسلامية بعد الهجرة وبعد ظهور الاسلام بالمدينة وبعد ان صار للمسلمين شوكة تخاف · ولذلك فان الحديث عن هـــذه الطائفة ورد فيما نزل من القرآن بعد الهجرة ، او فيما يعرف في الاصطـــلاح بالقرآن «المدني» · حتى انه لا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحا او تصريحا · ونحن نود بعد هذا التنبيه الى هذه الحقيقة ان نخص بالدراسة تلك الآيات التي عالجت بصراحة ووضوح قضية «النفاق» واصحابها ·

ومن مجموع السور المدنية التي يبلغ عددها ثمانية وعشرين سورة فان موضوع النفاق والمنافقين يحتل حيزا واسعا من خمس عشرة سورة هي حسب ترتيبها على ما يعتمده الزركشي(١) : سورة البقرة ، سورة الانفال ، آل عمران الاحزاب ، النساء ، الحديد ، محمد ، الحشر ، النور ، الفتح ، المنافقون ، المجادلة ، التحريم ، التوبـة ·

وقد نزل كثير من الآيات في هذه السور لمناسبات بعينها ، وللكشف عن مواقف محددة ، ونزل غيرها لبيان حال المنافقين والتنبيه على خطرهـــم او للتهوين من شأنهم ولدعم المسلمين وشد ازرهم تجاه ما يهم به هؤلاء مـــن مكائد وما يبيتونه من شرور ·

---

(١) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ج ١ : ١٩٣ ـ ١٩٤ ، ينبغي ان ننبه هنا الى ان مسالة ترتيب السور محل خلاف بين العلماء ···

وبالتأمل في موضوعات هذه الآيات وما دارت عليه من معانى فاننـــا نلاحظ انها اهتمت بعلاج قضية النفاق والمنافقين فيما يتعلقبعقيدتهم ومـــا يكتنفها من غموض وتردد واضطراب ، وما انبنى عليها من الفساد في التصور والفساد في العمل من صدورهم عن سبيل الله واعراضهم عن هداه ، ومعصيتهم لنبيه عليه الصلاة والسلام واستهزائهم واستهتارهم بما جاء به · وما نتج عن هذه التصورات والاعمال من التواء واعوجاج في نفوس هؤلاء المنافقين ·

وكذلك عالجت الآيات القرآنية الانعكاسات التي ظهرت في مواقـــف المنافقين العملية في عباداتهم وما شابها من الكراهية والاعراض والتكاسل ، في الصلاة ، وفي الصدقة والانفاق وفي الصوم ، وما عرف عنهم من التثاقل عن الجهاد ومن التعويق والتخذيل ، وكذلك امر علاقتهم بالمسلمين وما فيها مـــن مناورة وغش وخداع ، وصلاتهم بالمعسكرات المعادية للمسلمين وما كان منهـم من المودة لاعداء الله ورسوله ·· وكما كشفت هذه الآيات القرآنيـة محـادة المنافقين لله وللرسول والمسلمين في القول والعمل ، فانها زخرت بالتوجيهات التي تبين للرسول عليه الصلاة والسلام وللمسلمين طريقة معاملة هؤلاء القوم ، وبعد هذا كله فان هناك اشارات متكررة الى المصير المظلم الكئيب الذي أعده الله لهم جزاء على نفاقهم ان لم يرجعوا عنه ويتوبوا الى الله سبحانـــــه ويستغفروه ·

اولا : النفـــاق في العقيـــدة :

والموضوع الاول الذي ناقشته الآيات العديدة في تناولها لمسألة النفاق هو موضوع العقيدة ، فكشفت فساد عقيدة المنافقين واضطراب ايمانهم بالله . مما يدخلهم في الضياع والتردد الذي يحرمهم من هداية الله سبحانه وتعالـــى . ويعرضهم لسخطه وغضبه ، فهي في حقيقتها مريضة مدخولة فاسدة . قـــد خالطها الشك وأفسدها المرض ، فهي لذلك تقيس الامور كلها قياسا فاســدا . وتتصورها من منظار مشوش مهزوز .

ذلك ان قلوبهم وافئدتهم خالية من العقيدة الصحيحة ، وان ما يدعونه منها هو نوع من الخداع والغش الذي يتوسلون به الى المسلمين لنيل رضاهـــم والمكوث بينهم دون ان يتعرضوا لسخطهم وغضبهم ان هم اظهروا حقيقة امرهم. ولذلك فان أول ما أشار اليه القرآن في أول ما نزل من الآيات بشأنهم فـــي سورة البقرة هو كشف هذا الادعاء الذي يخدعون به المسلمين لما يلبسونه عليهم من أمرهم : «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**» .(١)

فقد كشفت هذه الآيات حقيقة ادعائهم فنفت عنهم صفة الايمان ووصفتهم بالخداع والشك والكذب ، وتذهب الآيات الى أكثر من ذلك فتكشف أسبـــاب تصورهم هذا ، فهم يعتقدون في دخيلة انفسهم ان عقيدة المسلمين ما هي الا نتيجة السفه وقلة العقل والفهم ، وهم يستنكفون لذلك ـ حسب زعمهم ـ مـن اعتناق مثل تلك العقيدة ،

«**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ، قَالُوا : أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ**»(٢) . وهم مع هذا يأخذون الامر كلـــه مأخذا هازلا في اطار من السخرية والاستهزاء : «**وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**»(٣) .

---

(١) سورة البقرة : ٨ ـ ١٠ .
(٢) سورة البقرة : ١٣ .
(٣) سورة البقرة : ١٤ .

وقد كان ذلك شأنهم لا ينتهون ولا يتعظون : «يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ»(١) ۝

وموقف السخرية والاستهزاء هذا انما قاد اليه فراغ القلب من العقيدة الصحيحة ومن التصور السليم لمفهوم الألوهية والعبودية ومتطلباتهما ، وقد عكس هذا الضياع والتشويش في العقيدة كثيرامن المواقف الزائفة التي لا يمكن تفسيرها الا اذا وضعت في اطار فساد العقيدة وخبث القصد ۝ التصرفات التي تطبع سلوكهم بالخداع الذي يتصور صاحبه انه سيفلت من حساب الله سبحانه ۝ ومجرد التصرف من خلال هذا التصور الساذج المحدود الذي يتخيل انه بامكانه خداع الله ورسوله يكشف مدى ضلال هؤلاء وجهلهم : «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»(٢) ۝ فهم في الواقع انما يخدعون أنفسهم عندما يعتقدون امكان خداع الله ورسوله ، ولكنه الجهل الكامل بحقيقة الألوهية وخصائصها قادهم الى مثل ذلك التصور الساذج الغافل : «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا»(٣) ۝ وقد دل هذا بوضوح كما يذكر القرطبي رحمه الله «ان المنافقين لم يعرفوا الله ۝ اذ لو عرفوه لعرفوا انه لا يخدع»(٤) ۝

ولذلك فقد كان كل همهم هو الخلاص مع المسلمين بما يلجأون اليه من الأيمان الكاذبة التي يحلفون لهم بها لكي يخرجوا بها أنفسهم من تبعة ارتياب المسلمين في امرهم ، ثم هم لا يبالون ۝ بعلم الله بهم وبحقيقة ما في قلوبهم من الشك والنفاق والكذب ۝۝۝ وقد جاءت الآيات الكثيرة تكشف كذبهم هذا :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»(٥) ۝

---

(١) سورة التوبة : ٦٤ ـ ٦٥
(٢) سورة البقرة : ٩
(٣) سورة النساء : ١٤٢
(٤) القرطبي : احكام القرآن : ج ١ : ١٩٦
(٥) سورة المجادلة : ١٤

ولكن طالما كانت هذه الايمان وسيلة تقيهم غضب المسلمين وسخطهم فهم لا يبالون ما وراءها : «اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ» (١) · وقد نعى عليهم القرآن قصر نظرهم وسوء فهمهم فقد كان أولى بهم ان يحرصوا على ارضاء الله سبحانه ، فذلك أصلح لدنياهم وآخرتهم ، وذلك ما ينبغي ان يهتم له العاقل الحصيف : «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ»(٢) ·

ولما كان هذا الادعاء الكاذب من أخص خصائصهم افتتح الله السورة الموسومة باسم «المنافقون» بالاشارة اليه : «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»(٣) ·

وهم يتوقون بهذه الايمان ويتذرعون بها في كل مناسبة :

«سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»(٤)

ويتكرر صنيعهم هذا شأن المرتاب المتشكك الذي تلح عليه حقيقة حاله فيحس كأن باطنه منكشف للناس فيلجأ الى التغطية والتمويه :

«وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ انَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ»(٥) ·

وعندما يفتضح امرهم في بعض ما بيتوه من مكائدهم وشرورهم التي يؤدون بها المسلمين في قول او عمل فانهم يلجأون لنفس الوسيلة · فعندما اطلع الله نبيه عليه السلام بعزم المنافقين على النيل منه عليه السلام وطرحه من العقبة عند مرجعه من تبوك وما كان من تآمرهم وعزمهم على انفاذ خطتهم

---

(١) سورة المجادلة : ١٦
(٢) سورة التوبة : ٦٢
(٣) سورة المنافقون : ١ ـ ٢
(٤) سورة التوبة : ٩٥ ـ ٩٦
(٥) سورة التوبة : ٥٦

الشريرة ـ عندما افتضح امرهم لجأوا الى الحلف : «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ...»(١)

وعندما اظهر الله سبحانه وتعالى سوء نيتهم وفساد قصدهم في اتخاذهم مسجد الضرار لجأوا ايضا الى الحلف : «وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ» (٢) .

وقد صور القرآن شدة ولوعهم بهذه الوسيلة وكثرة اعتمادهم عليها وركونهم اليها ، فذكر ان لجوءهم الى الحلف لشدة تمكنه منهم صحبهم حتى اثناء الموقف الذي تتكشف فيه كل وسائل الخداع والتمويه ـ يوم مبعثهم ووقوفهم بين يدي الله سبحانه وتعالى ـ انهم حتى حينذاك يلجأون الى نفس الوسيلة ويستعملون نفس الاسلوب : «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلاَّ إِنَّهُمْ هُمُ الكَاذِبُونَ»(٣) .

وقد تولى القرآن الكريم كشف زيف هذه الايمان التي يتذرعون بها كذبا، واكد في اكثر من موضع كذبهم ونفاقهم ، وبين حقيقة عقيدتهم :

«المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ . وَعَدَ اللَّهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٤) .

وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بالكفر والفسق في نسق واحد :

«قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ . وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...»(٥) .

وقال سبحانه وتعالى في معرض الاشارة الى استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم :

---

(١) سورة التوبة : ٧٤
(٢) سورة التوبة : ١٠٧
(٣) سورة المجادلة : ١٨
(٤) سورة التوبة : ٦٧ ـ ٦٨
(٥) سورة التوبة : ٥٣ ـ ٥٤

«اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (١)

وقال في موضع اخر : «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ»(٢) ٠

وقال ايضا :« وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَات أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ»(٣) وقال فيسورة «المنافقون» :

«٠٠٠ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ»(٤) ٠

وقال في سورة التوبة :

«لا تَعْتَذِرُوا ، قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ»(٥) ٠

وقال في الآية الاخرى :

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٠ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ»(٦) ٠

وعند الكلام عن الفئة الذين اعتذروا عن الخروج الى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستاذنوه في القعود ٠ تحدثت الآية في وضوح عن خلوهم من الايمان وفراغ قلوبهم منه :

«إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ»(٧) ٠

---

(١) سورة التوبة : ٨٠
(٢) سورة المنافقون : ٦
(٣) سورة التوبة : ٨٤
(٤) سورة المنافقون : ٣
(٥) سورة التوبة : ٦٦
(٦) سورة التوبة : ٧٣ ـ ٧٤
(٧) سورة التوبة : ٤٥

وقال في سورة الأحزاب في صفة المعوقين :

« أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ...»(١) .

ليس هذا فحسب ، بل هم . في اتصافهم بالكفر يتمنون لو ان المسلمين لحقوا بهم في ضلالهم ذاك ، فهم مع كفرهم دعاة الى الكفر :

«وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاء ..» (٢) .

فقد وصفت هذه الآيات الكريمة السابقة «المنافقين» بأنهم فاسقون ، وبأنهم كفروا بالله ورسوله ، وبأنهم آمنوا ثم كفروا وانهم كفروا بعد ايمانهم وانهم قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم ، وبأنهم لم يؤمنوا ، وبأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الاخر . وجمعهم السياق القرآني هم والكفار في صعيد واحد .

بعد ما مضى نريد ان نتقدم قليلا لنتعرف على مظاهر الفسق والكفر الذي اتصف به المنافقون كما يظهر في اطار مفهوم عن الألوهية وتصورهم لها ، وموقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه . ثم كيف كان رد فعلهم تجاه آيات الله وما يتنزل على نبيه من القرآن .

أما جهلهم بالله سبحانه وتعالى ، وعدم استيعابهم لحقيقة الألوهية وخصائصها فحسبك انهم يتصورون انه بمقدورهم خداع الله سبحانه ، وانهم في مواقفهم كلها انما يحسبون فقط حساب البشر ، ويتحركون في اطار التعامل المحدود بين الناس في نطاق امكانياتهم وتصوراتهم .. فالمنافقون لا يستهدفون رضا الله سبحانه في سعيهم ولا يتجنبون سخطه ، وان التمسوا الرضى فمن المسلمين او تجنبوا السخط فمن المسلمين :

«يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ»(٣) .

---

(١) سورة الاحزاب : ١٩
(٢) سورة النساء : ٨٩
(٣) سورة التوبة : ٩٦

ولو عمرت عقولهم بشيء من الفهم والادراك لحقيقة الألوهية وخصائصها لما احتفلوا بغير الله سبحانه ولما حرصوا على ارضاء غيره من خلقه ممن لا يملكون معه شيئا ، ولكن كانوا على عكس ذلك تماما :

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ»(١) ٠

واعتمادهم الكذب في علاقاتهم ومعاملاتهم مع المسلمين ، وقولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وتصورهم أن ذلك مما سيخفى على النبي صلى الله عليه وسلم كل ذلك دليل على جهلهم وسذاجة ادراكهم لحقيقة النبوة والوحي واستمدادهما من علم الله المطلق ٠

وفي هذا الاطار لم يخل تعامل المنافقين مع الله سبحانه وتعالى من الخلف والكذب : «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ.فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ٠ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»(٢) ٠

فهم لا يرعون عهدهم مع الله سبحانه ، ويمضون كأنهم ما عاهدوه ولا ألزموا أنفسهم تجاهه شيئا لشكر ما آتاهم من فضله وما أسبغ عليهم من نعمه وذلك في حقيقته مظهر لجهلهم وغفلتهم وسوء ادراكهم :

«أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ؟!»(٣) ٠

وكذلك كان شأن طائفة منهم ممن حضروا وقعة الاحزاب ، تخبرنا عنهم الآيات التالية أنهم انخذلوا وانسحبوا لغير عذر غير خيسهم بالعهد واخلافهم لما عاهدوا الله عليه :

«وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً ، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً.وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً»(٤)

---

(١) سورة محمد : ٢٨
(٢) سورة التوبة : ٧٥ ـ ٧٧
(٣) سورة التوبة : ٧٨
(٤) سورة الاحزاب : ١٣ ـ ١٥

ولكنهم خاسوا بالعهد ، واثروا الفرار والنكوص وقد حدث ذلك منهم لانهم في عهدهم مع الله سبحانه كانوا هازلين عابثين ، فكأنهم يدخلون عقدة لا رباط فيها ، ويعقدون عهدا لا سؤال عنه ، ولكن هيهات

وانما كان ذلك كذلك لجهل المنافقين بالله وتصورهم انهم انما يتحركون في فراغ حسب أهوائهمولا يتعاملون الا في اطار من الألاعيب التي يرسمها لهم تحايلهم الذكي بزعمهم في اطار تعاملهم مع المسلمين حتى لا يقعوا في سخطهم فيمدون لهم يدا بينما تتلمس الاخرى رضا أعدائهم ، وهم في كل ذلك لا يدركون ان التعامل في هذه الحياة انما هو مع الله رب العالمين ، عالم السر والنجوى ، وعلام الغيوب ٠

والذي قاد المنافقين الى التخاذل والفرار في مواقف الجهاد والتضحية هو سوء ظنهم بالله تعالى ، وقياسهم الامور بمقاييس البشر وفي مجال التصورات الجاهلية التي لا تؤمن بالله ولا تحسب حسابا لنصرته وقدرته ٠ وتأمل هـــذه الآية الكريمة التالية تصور حال طائفة من المنافقين في غزاة «أُحُدٍ» حين ذهبت الظنون بهم كل مذهب واوقعتهم تصوراتهم الغائمة المضطربة في حالة قاسية من الهم والارتباك حرمتهم نعمة أمنة النعاس التي أنزلها الله على المؤمنين من عباده بعد ما أصابهم من الغم ، فعلى حين ينعم المؤمنون بتلك النعمة ، تعيش نفوس أهل النفاق في حالة بائسة من الحيرة والقلق والغم المتصل ٠٠

« وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ٠٠»(١) ٠

وهم في هذا الظن السيء يلحقون بأعداء الله من المشركين حتى ان آية سورة الفتح جمعتهم سواء هم والمشركين في سياق واحد في اطار من الوعيد الشديد :

«٠٠٠ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم وَلَعَنَهُم وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً»(٢) ٠

---

(١) سورة آل عمران : ١٥٣
(٢) سورة الفتح : ٦

وقد كان هذا الظن فيما يبدو من الاوصاف الغالبة عليهم ، وتكرر ذكره عنهم في هذه السورة موضحا عدم ثقتهم في وعد الله ونصره واطمئنانهم الى تصورهم الخاطيء وظنهم السيء :

«بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوماً بوراً»(١) ٠

ومما يستدعي التأمل هذا التعقيب المباشر على أمر هؤلاء المنافقين وظنهم :

«وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً»(٢) ٠

وهو ـ لعمري ـ كذلك فليس من شأن المؤمنين بالله سوء الظن به وبنصره ، وانما شأن المؤمنين دائما الثقة في الله والاطمئنان الى نصره وصدق الرجاء في وعده ٠٠٠ وذلك هو حالهم دائما ، حال الذعر والخوف القاتل ، حتى ان المنافقين في غزوة الخندق لما اشتد الامر من حصار المشركين للمسلمين ، ذهبت بهم وساوسهم كل مذهب ، وغلب عليهم اليأس والقنوط ، فأظهروا سوء ظنهم في الله ووعده :

«وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً»(٣) ٠

فذلك هو مبلغ علمهم بالله ، وذلك هو ظنهم بالله ، وهو شيء لا يليق بغير المنافقين المرتكسين في الجهل والخذلان والضلال ٠

ان محك الايمان كمايقرره الاسلام هو التسليم لله سبحانه وتعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم واتباع ما شرعه من الدين ٠ ولكن المنافقين لفساد عقيدتهم واهتزاز ايمانهم وغيمومة تصوراتهم كانوا يصدون عن آيات الله ويعرضون عن أوامره ، ولا يبادرون الى الالتزام بأوامر الرسول ولا الى تحكيم ما انزل الله سبحانه ، بل يتصرفون على العكس من ذلك تماما ، وقد نبه القرآن الكريم الى هذه الظاهرة من أخلاق المنافقين فقال :

---

(١) سورة الفتح : ١٢
(٢) سورة الفتح : ١٣
(٣) سورة الاحزاب : ١٢

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً · وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً»(١) ·

وسياق الآية هنا عام يتحدث عن ظاهرة كانت ما تزال تجد في معطيات التقاليد الجاهلية منطلقا لها في الصدود عن الله وعن الرسول عليه السلام· وتذكر كتب التفسير ان الآية نزلت في حق رجل يهودي ورجل من المنافقين اختصما فقال اليهودي انطلق بنا الى محمد ، وقال المنافق : بل الى كعب بن الاشرف وابي اليهودي الا رسول الله ، فلما حكم بينهما وقضى لليهودي ابى المنافق من قبول الحكم والتسليم له (٢) · وهو موقف يتعارض بلا شك مع حقيقة الايمان ومقتضياته ـ فلا يعقل ان يدع المسلم حكم الله وحكم رسوله الى أحكام اخرى ، وان يؤثر أحكام الطواغيت والكهان ومن في وصفهم على حكم الله ورسوله ـ ولن يفعل ذلك الا منافق ظاهر النفاق مدخول العقيدة ·· وقد عقب السياق بعد ذلك بما جسم هذا التردد وحدد حقيقة الايمان التي لن تكون في غير التسليم التام لحكم الله ورسوله :

«فَلا وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»(٣) ·

وقد ذكر مجاهد وغيره من رواة التفسير ان المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم الى الطاغوت من المنافقين وأنها فيهم نزلت ، وهذا اختيار الامام الطبري ايضا(٤) ·

فمقياس الايمان الذي يبرأ صاحبه من النفاق كما تصرح هذه الآية بوضوح هو الرضى والتسليم بحكم الله سبحانه وبقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم · وهو معنى اكد عليه القرآن في غير ما موضع :

---

(١) سورة النساء : ٦٠ ـ ٦١
(٢) القرطبي : الاحكام : ٥ : ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ، الواحدي : اسباب النزول : ١٥٣ ـ ١٥٧ ، ابن كثير : تفسير : ١ : ٥١٩
(٣) سورة النساء : ٦٥
(٤) القرطبي : المصدر السابق : ٥ : ٢٦٦ ـ ٢٦٧

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ»(١) · فمقتضى الايمان والتصديق بنبوة الرسول عليه السلام يعني التسليم لحكمه واتباع أمره وطاعته فيما يأمر به والا بطلت حكمة التصديق والاتباع واصبحت فارغة المعنى :

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّه ···»(٢) ولذلك فقد ربط الله سبحانه وتعالى طاعة الرسول بطاعته هو وجعلها جزءا منها ودليلا على الايمان بالله وصدق ذلك الايمان : «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ» (٣) ·

أما ما يذكره القرآن عن أحوال المنافقين فهو أنهم كاذبون في ادعائهم طاعة الله ورسوله ، وأنهم في غالب شئونهم يسيرون على عكس ما أعلنوه وادعوه من تلك الطاعة :

«وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تقول»(٤) ·

ولا يخفى ما في الالتواء من الخطر على الجماعة المسلمة التي تعتمد امثال هؤلاء في حسابها اولا فاذا بهم يفجأونها بغير ما التزموا به اولا فيتسببون بذلك في تحطيم كل حساباتها وتقديراتها ، ولا يخفى ما يشيعه موقف مثل هذا من فوضى واضطراب في صفوف الجماعة المسلمة ··· وهناك مظهر اخر لمثل هذه الاعمال المسببة في الفوضى في صفوف الجماعة المسلمة ، وهي في اصلها ترجع الى تمرد المنافقين عن واجبات الطاعة المفروضة لقيادة الامة الممثلة في شخص الرسول عليه السلام ، انتهاجهم منهج الهوى المنفلت فيما يأتون وما يذرون :

«وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ وَالخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»(٥) فهم يتصرفون كأنهم بمعزل عن جماعة منظمة تحت قيادة موحدة لها منهجها وخططها ، وهم لا يقدرون ابعاد مثل تلك التصرفات وما تشيعه من بلبلة وفوضى ، فهم لذلك مصدر خطر

---

(١) سورة الاحزاب : ٣٦
(٢) سورة النساء : ٦٤
(٣) سورة النساء : ٨٠
(٤) سورة النساء : ٨١
(٥) سورة النساء : ٨٣

وأذى على الجماعة المسلمة وعلى خططها ، فلا يخفى ما يسببه مثل هذا التصرف خارج نطاق القيادة ، فهي وحدها التي تستطيع ان تقدر القيمة الحقيقية لامور الامن والخوف في كل حين بما تجمع لديها من معلومات وما اعتمدته من وسائل ، وفي نطاق السياسة والخطة التي انتهجها في تلك الظروف الملابسة . والقيادة وحدها هي التي تقدر ما ينبغي ان يذاع ويشاع وما ينبغي ان يكتم ويحفظ في اطار تأثير ذلك كله على معنويات الجماعة . ويذكر المفسرون ان «اولي الامر» في هذه الآية هم الولاة او امراء السرايا (١) .

وهناك المزيد من الآيات التي توضح موقف المنافقين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقونه له بالا تهاونا منهم ، فاذا خرجوا قالوا لاولي العلم من الصحابة ، ماذا قال الساعة ؟ على وجه الاستهزاء(٢) : **«وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا»** (٣) .

وهم في مواقفهم هذه التي تجسم معصيتهم للرسول والاستهزاء بالمسلمين يلتقون في حلف آثم مع غيرهم من اعداء الله من اليهود وغيرهم وهذا ما تشير اليه آيات سورة المجادلة : **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ»** (٤) . وقد تكررت منهم المواقف التي تجسم معصيتهم للرسول وتطاولهم على مقامه الكريم ، وقد ذكرت سورة التوبة صورا منها ، ومن ذلك قوله تعلى : **«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ»** (٥) . فمن هؤلاء المنافقين من يعيب النبي صلى الله عليه وسلم في أمر الصدقات ويطعن عليه فيها ، ليس بهم في عيبهم اياه فيها وطعنهم عليه بسببها الدين ، ولكن الغضب لانفسهم فان اعطاهم الرسول عليه السلام منها ما يرضيهم رضوا عنه ، وان هو لم يعطهم منها سخطوا عليه وعابوه ، وكان ان قالوا : والله ما يعطيها

---

(١) القرطبي : الاحكام : ج ٥ : ٢٩١
(٢) الزمخشري : الكشاف : ج ٤ : ٣٢٢
(٣) سورة محمد : ١٦
(٤) سورة المجادلة : ٨
(٥) سورة التوبة : ٥٨

محمد الا من احب ، ولا يؤثر بها الا هواه (١) · وهذا تقييم توجيه التصورات الارضية المحدودة المتدنية التي لا تليق الا بالمنافقين وطبيعتهم المتردية ، وهو تقييم يكشف بوضوح العين التي ينظر بها المنافقون الى شخص النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد منعهم ضلالهم وجهلهم من الارتفاع عن هذه التصورات المتهافتة الى ما يليق بأخلاق النبوة من العدل والصدق وحسن النظر للمسلمين(٢) ·

ومما يذكره القرآن الكريم من صور الاذى التي قصدوا بها النبي عليه الصلاة والسلام : «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ · قُلْ هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُم يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»(٣) · وذلك قولهم عنه صلى الله عليه وسلم أنه «أذن» من حدثه شيئا صدقه ، وأنه يسمع من كل أحد ·· وكان المنافقون يتوهمون ذلك عليه، عليه السلام، ويعتمدونه في افترائهم وكذبهم عليه · يقولون : هو أذن نقول ما شئنا ونحلف فيصدقنا(٤) · وقد كذبهم الله سبحانه وتعالى ، وقال : «قُلْ هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ» .فهو عندما يصدق فانه يصدق المؤمنين الصادقين وليس المناقين وأهل الكفر بالله الذين يعيبون رسول الله صلى الله عليه وسلم · ويقولون · «هو أذن» من أمثالهم من مكذبيه والقائلين فيه الهجر والباطل (٥) ·

وقد تقدم الحديث عن أذاهم للرسول عليه الصلاة والسلام في شخص زوجه عائشة رضي الله عنها وما روجوه من حديث الافك ، ومقالتهم في زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها ، وغير ذلك من أذيتهم للنبي صلى الله عليه وسلم(٦) ··» والمنافقون والمرجفون لم يكونوا يسكتون ، فقد كانوا ينتهزون كل فرصة لبث سمومهم ··· ، وكل مناسبة تعرض لإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ـ بغير حق » ·

أما موقف المنافقين من آيات الله وما يتنزل من الوحي فقد وردت الاشارة اليه في عدد من الآيات ، وهو موقف يتردد بين الاعراض والكفر والاستهزاء ،

---

(١) انظر القرطبي : الاحكام : ج ٨ :١٦٦ ، الطبري : تفسير : ج ١٤ : : ٣٠٠ـ٣٢٤
(٢) انظر ما سبق
(٣) سورة التوبة : ٦١
(٤) الطبري : تفسير ج ١٤ : ٣٢٦ وما بعدها
(٥) المصدر السابق : ١٤ : ٣٢٨
(٦) انظر ما سبق

فمن ذلك قوله تعالى : «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ»(١) . وقوله تعالى : «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ ثُمَّ انصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ»(٢) . وتصور هذه الآيات اعراضهم ونفورهم من آيات الله ، فهم لا يفقهون عن الله خطابه ولا يتصدون لفهم ولا يهتمون له بل هم في شغل عنه ونفور منه:«فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ» (٣) فبينما تجد المؤمنين يستبشرون بنزول الوحي ، يزيدهم ذلك قوة وتثبيتا ، تجد المنافقين على عكس ذلك ، يزدادون شكا وارتيابا ، : «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...» (٤) وقد قادهم الى العمى والضلال وصرفهم عن تفهم الحق والانتفاع به جهلهم وغلظتهم : «صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ»(٥) . وذلك كما قال تعالى : فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) وكما قال : «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا»(٧) . يعني : ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سببا للهداية كما قال تعالى : «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»(٨) .

وقال في صفة المنافقين في هذا الباب : «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»(٩) وقد نعى الله عليهم جهلهم وعدم فهمهم ، وذكر عنهم أنهم في كثير من ضلالاتهم انما اوتوا من قبل الجهل وعدم الفهم : «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا

---

(١) سورة التوبة : ١٢٤ ـ ١٢٥
(٢) سورة التوبة : ١٢٧
(٣) سورة المدثر : ٤٨ ـ ٥١
(٤) سورة فصلت : ٤٤
(٥) سورة التوبة : ١٢٧
(٦) سورة الصف : ٥
(٧) سورة الاعراف : ١٧٩
(٨) سورة الاحقاف : ٢٦
(٩) سورة البقرة : ١٨

يَفْقَهُونَ»(١) · وقال عنهم : «يَقُولُونَ : لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ»(٢) · وقال «وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ · قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا»(٣) · فانعدام العلم وسوء الفهم قد قاد المنافقين الى الاعراض عن آيات الله ، وأعمى عنها أبصارهم وأفئدتهم وأصم أسماعهم وحرمهم نعمتها ورحمتها ··· بل دفعهم الى السخرية منها والاستهزاء بها ، لا يتسترون بذلك ولا يخفونه ، بل يفعلونه علنا ويتخذون عليه أعوانا من الكافرين واليهود ويتخذون لذلك المجالس والاندية ، وقد أمر الله لمسلمين بمقاطعة مجالسهم تلك التي يعلنون فيها كفرهم واستهزاءهم بآيات الله سبحانه وتعالى ليصون آذان المسلمين عن ذلك الاذى الخبيث ، وليفوت على المنافقين ما قصدوه من أذى المسلمين والاساءة اليهم : «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا» (٤) ·

وهم يجمعون الى الاستهزاء بآيات الله سبحانه الاستهانة بها وعدم الاستجابة لما تأمر به : «وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا : ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ» (٥) · هكذا بدون عذر ولا مبرر غير النفاق والشك ، فذلك شأنهم في كل أحوالهم : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» (٦) ·

فهذا هو موقف المنافقين تجاه آيات الله سبحانه وتعالى ، موقف الاعراض والانصراف ، والصد والاستهزاء ·

واذا اردنا ان نستجمع خيوط موقف المنافقين من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ، وموقفهم تجاه آيات الله البينات ، وجدناه موقف

---

(١) سورة المنافقون : ٧
(٢) سورة المنافقون : ٨
(٣) سورة : ٧٩
(٤) سورة النساء : ١٤٠
(٥) سورة التوبة : ٨٦
(٦) سورة النساء : ٦١

الكفر بالله وسوء الظن به سبحانه ، وعدم الثقة في وعده ، والاخلاف لعهـــــده، والاعراض عن حكمه وأمره · أما موقفهم حيال رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان موقف التكذيب والاساءة والاذى والاستهزاء والمعصية · اما موقفهم من آيات الله سبحانه فهو موقف يتردد بين الاعراض عنها ، والصد عن سبيلها · والكفر والاستهزاء بها · وهم يفعلون هذا كله مع دعواهم العريضة الباطلة أنهم «مسلمون» !!! ولكن تلك دعوى كاذبة كشفها الله سبحانه وتعالى فيما أنزله من الآيات التي نبهت الى عقائدهم الفاسدة وأقولهم الباطلة وافعالهم الشريرة ··· وقد جعل وضعهم هذا منهم فئة من أخطر الفئات التي حملت لواء العدواة لله ولرسوله وللمسلمين ، وكانت في كل ادوارها مصدر أذى للمسلمين ومطية من مطايا التوهين والفساد في داخل بناء الجماعة المسلمة ·

ثانيـــا : النفـــاق في الصـــلاة :

وكان من الطبيعي ان يستتبع فساد العقيدة فساد العمل ، وان ينعكس تأثير العقيدة المدخولة المهزوزة على مظاهر الحياة العملية التي يمتثلها «المنافقون» فـي سعيهم وما يصدر عنهم من نشاط وتحركات في شتى المجالات ، وفي الافعـــال والطاعات ٠

ونبدأ هنا في حديثنا بسنام الاسلام وعموده ، الصلاة ٠ فماذا يا ترى كان شأن المنافقين معها ؟

لقد وردت الاشارة الى صلاة المنافقين في آيتين : الاولى في ســـورة «النساء» وهي قوله تعالى : «**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُـــمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا**»(١)٠

والآية الثانية في سورة التوبة : «**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُـــمْ كَارِهُـــونَ**»(٢) ٠

فهذه الصلاة ، ركن الاسلام وعموده ، وعماد الدين وغرة الطاعات ، وعنوان العبودية الخالصة ومظهرها ، واول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة لأهميتها وخطرها في الاسلام ، وعلى ما فيها من تزكية النفس وما يتحصـل بها من فيوض الرحمة بمناجاة الرب الكريم ، هذه العبادة التي جعلها اللـــه كتابا موقوتا على المؤمنين ، يقف منها المنافقون موقف الكسل والتثاقل والتهاون ، فهم يغفلون عن كل ما فيها من خير وبر ، لا يدركونه ولا يعرفونه ، وهـــم ان قاموا الى أدائها فلكي يخفوا على المسلمين نفاقهم ، وليلبسوا على أنفسهم من ثياب المسلمين في مظهر هذه العبادة الشريفة ، ولذلك فان قيامهم ذلك ليـس قيام المؤمن المتطلع الى مناجاة ربه ، يحركه الشوق ويدفعه النشاط ، ولكنه قيام المتصنع المتظاهر بما لا يريد عمله : «٠٠٠ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ**» على تكره واستثقال ، وهم لا يريدون بها وجه الله سبحانه وتعـــالى ، ولا يقصدون فيها الى مناجاته والتعبد له ، ولكنهم «يراءون الناس» فهي لذلك صلاة

---

(١) سورة النساء : ١٤٢
(٢) سورة التوبـة : ٥٤

لا تحمل في حقيقتها غير صورتها الشكلية الفارغة من الصدق ومن الحياة ، ولا تحفل من حقائق العبودية وذكر الله والخشوع له والخضوع الا بالقليل الضئيل : «وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً» ٠

وقد ورد الكثير من الاثار والاخبار التي تكشف في مجملها حال المنافقين تجاه الصلاة وترسم صورا من تهاونهم بها ، وتخلفهم عن النداء وعن الجماعة، والتي تحذر المسلمين من الوقوع في هذا المحذور المهلك الذي يتلبس به أهل النفاق المخذولين ٠ فصلاة المنافقين كما اشرنا لون من ألوان المراءاة التي يتم لهم بها كسب اطمئنان المسلمين اليهم وسكوتهم عنهم ، يأتونها ما سهلت عليهم ويتخلفون عنها ـ غير مبالين ولا مكترثين ـ حين يصعب ايثانها حيث يكون وقتها في الفجر المبكر او في العشاء المتأخر ٠ وقد كان عدم حضور هاتين الصلاتين دليلا على نفاق المتخلفين عنهما ٠ عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : « صلى بنا رسول الله صلى‌الله عليه وسلم يوما الصبح فقال : أشاهد فلان ؟ قالوا : لا ٠ قال : أشاهد فلان ؟ قالوا لا ٠ قال ان هاتين الصلاتين اثقل الصلوات على المنافقين»(١) ٠

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ان أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ٠ ولقد هممت أن آمر رجلا فيصلي بالناس ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب الى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار»(٢) ٠ وفي رواية لمسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أناسا في بعض الصلوات فقال : لقد هممت أن آمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فأمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ولو علم أحدهم انه يجد عظما سمينا لشهدها»(٣) ٠

وفي مسند الربيع بن حبيب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد هممت ان آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيوذن لها ثم آمر رجلا يؤم الناس ، ثم أخالف الى رجال فأحرق

---

(١) المنذري : الترغيب والترهيب ج ١ : ٣٧٤
(٢) رواه البخاري ومسلم ٠
(٣) في رواية لمسلم ، الترغيب والترهيب ج ١ : ٢٦٧ ـ ٢٦٨

عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عظما سمينا او مرماتين حسنتين لشهد العشاء» (١) ٠

وقد صار الحرص على حضور هاتين الصلاتين ـ الصبح والعشاء ـ مقياسا يقاس به صدق المسلم في صلته بالله سبحانه وتعالى حتى لقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : «كنا اذا فقدنا الرجل في الفجر والعشاء أسانا به الظن (٢) ٠

وكذلك الامر في التخلف عن الجماعة عموما حتى لقد قال عتاب بن أسيد رضي الله عنه : «والله لا أعلم متخلفا عن الصلاة في جماعة الا ضربت عنقه، فانه لا يتخلف عن الصلاة الا منافق» (٣) ٠

وقد وردت الاخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصوص الخروج من المسجد بعد النداء ـ لغير عذر ـ انه من علامات النفاق :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى اللهعليه وسلم: «لا يسمع النداء في مسجدي هذا ثم يخرج منه لا لحاجة ثم يرجـــع اليه الا منافـــق»(٤) ٠

وعن سعيد المسبب رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا يخرج من المسجد احد بعد النداء الا منافق ، الا لعذر أخرجته حاجة وهو يريد الرجوع»(٥) ٠

ومن ذلك ايضا عدم الاستجابة لنداء الصلاة ، فالتخلف عن النداء مـن علامات النفاق ومظاهره ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى

---

(١) مسند الربيع بن حبيب ج ١ : ٥٠ حديث (١٨٢) ٠ والمرماة : ظلف الشاه او ما بين ظلفها من اللحم ٠
(٢) رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه ٠ الترغيب والترهيب ١ : ٢٦٨
(٣) علي بن برهان الدين الحلبي : أنسان العيون في سيرة الامين والمأمون : (السيرة الحلبية) ج ٣ : ٦٠
(٤) رواه الطبراني في الاوسط ورجاله مجنح بهم في الصحيح ، الترغيب والترهيب : ١ : ١٨٩ ـ ١٩٠
(٥) رواه ابو داود في مراسيله ٠

الله عليه وسلم أنه قال الجفاء كل الجفاء ،الكفر والنفاق ، من سمع منادي الله ينادي الى الصلاة فلا يجيبه» (١) · ولذلك فقد كان الدوام على الحضور المبكر للصلاة في الجماعة من صفات المؤمنين الصادقين ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال مرسول الله صلى الله عليه وسلم : «من صلى لله أربعين يوما في جماعة يدرك التكبيرة الاولى كتب له برءتان ، براءة من النار وبراءة من النفاق » (٢) ·

ولصلاة الجمعة شأن خاص في الاسلام ، لفضلها وفضل يومها وما فيها من مظاهر الرابطة الاخوية بين جماعة المسلمين ، ولذلك فقد ورد التشديد في التخلف عن حضورها ، ونص اكثر من حديث شريف ان من تخلف عن ثلاث جمع من غير عذر لحقهوصف النفاق :

عن أبي الجعد الضمري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :«من ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه»(٣) ·

وعن محمد بن عبدالرحمن بن زرارة رضي الله عنه قال : سمعت عمر ولم أر رجلا منا به شبيها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها ، ثم سمعه فلم يأتها ، ثم سمعه ولم يأتها طبع الله على قلبه وجعل قلبه قلب منافق» (٤) ·

وفي رواية لابن خزيمة وابن حبان : « من ترك الجمعة ثلاثا من غير عذر فهو منافق» (٥) ·

وعن أسامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين»(٦) ·

---

(١) رواه احمد الطبراني من رواية ربان بن قائد ، الترغيب الترهيب ج ١ : ٢٧٣
(٢)رواه الترمذي وقال : لا اعلم احدا رفعه الا ما روى مسلم بن قتيبة عن طعم بن عمرو ، الترغيب والترهيب : ج ١ : ٢٦٣
(٣) رواه احمد وابو دلود والترمذي وحسنة والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحيهما والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ·
(٤) رواه البيهقي ، الترغيب والترهيب ج ١ : ٥١٢
(٥) الترغيب والترهيب : ١ : ٥٠٩
(٦) رواه الطبراني في الكبير من رواية جابر الجعفي وله شواهد وهو صحيح الترغيب والترهيب ١ : ٥٠٩ وما بعدها ·

وبالتأمل فيما مضى من الاحاديث والاخبار يتبين ان المنافقين في عبادتهم، والصلاة رأسها ، انما يصدرون في ادائهم لها عن الرياء المحض الذي لا يهتم باتيان العبادة على وجهها الصحيح الكامل بقدر ما يهتم بأن يراه الناس يفعلها، ولذلك فحين يأمن المنافق رقابة الناس فانه لا يأتيها ، ثم هو ان جاء بها كانت فارغة من الروح خالية من ذكر الله ، وأنه عند وجود مشقة في حضورهـــا كالحال في صلاتي الصبح والعشاء لشدة تبكير الاولى في الصباح وتأخيـــر الاخرة في الليل ، وصلاة الجمعة التي يتوجب حضورها ـ عند تكامل شروطها ـ من مسافات بعيدة ـ فانهم لا يأتون هذه الصلوات تكاسلا عنها وتهاونا بها ٠ وانهم لا يهتمون بالنداء للصلاة ولا يستجيبون له ، وان فيهم من يدركه النداء في المسجد ويخرج غير مبال ، لما يشق عليه من انتظار الصلاة مع الجماعة ٠

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة المنافقين فقال : «تلك صلاة المنافقين ، يجلس أحدهم يتحدث حتى اذا صفرت الشمس وكانت بيـــن قرني الشيطان ثم يقوم فينفر اربعا لا يذكر الله فيها الا قليلا »(١) ٠

وكذلك جاءت الاشارة الى اعراضهم عن بيوت الله سبحانه وتعالى والى تأخيرهم الصلاة في قوله صلى الله عليه وسلم : « ان للمنافقين علامـــات يعرفون بها : تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربـــون المسجد الا هجرا ، ولا يأتون الصلاة الا دبرا ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل صخب بالنهار »(٢) ٠

وفي أطار الصورة التي ترسمها هذه الاحاديث الشريفة لموقف المنافقين من الصلاة ، نجد انفسنا أمام قوم يعوزهم الصدق في عبادتهم والاخلاص في اقامتها وأدائها ، فهي في هيئتها التي يؤدونها بها تقوم على الغش والكـــذب والخداع ، وهي طبيعة عقيدتهم المهزوزة الزائفة ٠

وواضح ان صلاة كهذه لن يكون لها أثر في تزكية النفس وتهذيبهـــا ، فليست بالتي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والمنكر اتيانها على صورتها تلك ، بل على العكس من ذلك فهي تصم صاحبها بالخداع والغش الدائمين ، ولذلك

---

(١) مسند الربيع بن حبيب ١ : ٥٠ حديث رقم (١٨٣) ، احمد : ٣ : ١٠٣ ، مسلم مساجد : ١٩٥ ، الترمذي : مواقيت : ٦ ، النسائي : مواقيت : ٩

(٢) مسند ابن حنبل : ٢ : ٢٩٣ ، ابن كثير : تفسير ج ٤ : ٣٦٨

فقد وردت الاشارة في الاية الكريمة الى اطراح أعمال المنافقين وعدم قبولها عند الله سبحانه وتعالى : «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ» (١) ٠

ولذلك ، ولكي يبرأ المسلمون من كل ما من شأنه ان يجعل عباداتهم وصلواتهم من جنس صلوات المنافقين هذه ، فقد وردت الآيات الكريمة والاحاديث الشريفة كثيرة متظافرة تحثهم على الخشوع في الصلاة واحسان اقامتها والاكثار فيها من ذكر الله سبحانه وتعالى ٠ وهذا أمر لا نحتاج الى الحديث فيه هنا فموضعه الكتب التي تحدثت في العبادات في الاسلام وهي اكثر من ان تحصى ٠

ولا نستطيع ان نختم الحديث في الموضوع قبل الاشارة الى موقف المنافقين في بنائهم «مسجد الضرار» الذي هدمه الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر باحراقه ٠ وقد مضى الحديث فيه قبل هذا(٢) ٠ والذي يهمنا الاشارة اليه هنا هو محاولة المنافقين تطويع العبادة ومؤسساتها لاهدافهم الخبيثة ٠ لقد شرع الله سبحانه وتعالى الصلاة مظهرا من مظاهر العبودية ، وصورة من صور الاخوة والتلاحم بين المسلمين ، وسببا ووسيلة لصهرهم في بنيان واحد ، فجعل المنافقون من هذه العبادة ، ومن المسجد وهو البناء الذي ينبغي ان يكون بيت الله في الارض ، ومصدر الهداية والصلاح والتقوى ، جعل المنافقون من المسجد وسيلة تفريق واضرار وارصاد لمن حارب الله ورسوله : «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ٠٠»(٣) ٠ وعلى عادتهم فيقلب الاشياء وعكسها يزعمون أنهم انما قصدوا بفعلهم ذاك الخير والاحسان ٠٠ وذلك لتغليف غرضهم الخبيث بما يوحي لاول وهلة أنه الخير ٠ فقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «اننا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ٠٠»(٤) وهي مبررات تبدو معقولة لاول وهلة ٠ ولكن الله سبحانه وتعالى كشف أمرهم

---

(١) سورة التوبة : ٥٤
(٢) انظر ما سبق .
(٣) سورة التوبة : ١٠٧
(٤) الطبري : تفسير : ١٤ : ٤٦٨

وأظهر لنبيه عليه السلام غرضهم الذي بيتوه من بنايتهم تلك : «فقد بنوه «ضرارا» يضاهون به مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم «وكفرا» بالله لمحادتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «وتفريقا بين المؤمنين» ليصلي فيه بعضهم دون مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعضهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا ، «وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل» اي أنهم يعدون هذا البناء لابي عامر الفاسق الكافر الذي خالف الله ورسوله وكفر بهما ، وذلك ان أبا عامر هو الذي كان حزب الاحزاب لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما خذله الله لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله ، وكتب الى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذي كانوا بنوه ليصلي فيه ـ فيما يزعم ـ اذا رجع اليهم»(١) · وكعادتهم تذرعوا بالايمان الكاذبة ليموهوا أمرهم وليتوسلوا بذلك الى امضاء عزمهم وانفاذ خططهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى كشفهم وفضح أمرهم : «**وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**»(٢) وجاء السياق بعد هذا يأمرالنبي صلى الله عليه وسلم بعدم القيام فيه لانه بناء ـ وان كان يحمل اسمالمسجد ومظهره ـ قد اسس على الكفر وعلى حرب الرسول ومكايدة المسلمين ، وانما تقام ابنية الاسلام على الطهر في القصد والصدق في العمل ، وعلى تقوى الله ورضوانه · «**لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ · أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ · لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**»(٣) ·

وهكذا ترى ، ان وسائلالمنافقين في الكيد والشر لا تتوقف عند حد ، بل انها تمتد الى جميع المجالات لتلبس على المسلمين دينهم وتفسد عليهم أمرهم · ويصل الامر الى اتخاذ شعائر الاسلام وشرائعه وشعاراته ومؤسساته منطلقا للفساد والتضليل والتفريق · وهكذا فان الفيصل في أمور الاسلام ليس ما ينصب من مؤسسات وما يرفع من شعارات ويقام من هيئات ما لم يكن في أهلها

---

(١) المصدر السابق ١٤ : ٤٦٩ ـ ٤٧٠
(٢) سورة التوبة : ١٠٧
(٣) سورة التوبة : ١٠٨ ـ ١١٠

القائمين بها صدق العقيدة واخلاص العمل وتحري تقوى الله سبحانه وتعالى ـ ورضوانه وهي عندما تنعري من هذا تصبح ـ بلا شك ـ أدوات ضرار وتفريق وحرب للمسلمين ، ووسائل تضليل وتمويه · ولافتات تزور الباطل باسم الحق، وتمكن للفساد فتقنعه ببراقع الاصلاح ·· ولعل هذا ان يكون أشد واخبث الاساليب التي يحارب بها أعداء الاسلام هذا الدين وأهله ·

وانت تستطيع ان تقيس على مسجد الضرار ، هيئات الضرار ، ومؤتمرات الضرار ، وجمعيات الضرار ، ومجلات الضرار الى اخر ذلك كله فترى في ذلك لمسات الفساد والنفاق ظاهرة واضحة ، لتعلم ـ من ثم ـ أن النفوس هي هي ، وان جند الباطل ينهجون منهجا واحدا ولو طال بهم الامد وتغيرت عليهم الازمان وتباعدت بينهم المسافات : «**المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ**»(١) ·

والمخلص لاهل الايمان من هذا كله ، هو المضي على المنهج الذي رسمه الرسول صلى الله عليه وسلم ونهجه له القرآن الكريم واتبعه المسلمون الاولون في كشف زيف النفاق ودحضه وتطهير الجماعات والمجتمعات الاسلامية من اثاره واوضاره ، وتمزيق لافتات التمويه واظهار حقائقها حتى لا يختلط الطيب والخبيث والصحيح والفاسد ·

---

(١) سورة التوبة : ٦٧

ثالثـا ـ موقف المنافقين من الصدقة والنفقات :

وكما تحتاج الدعوات في بنائها الى العقيدة الصحيحة والمنهج المحكـم والتربية الشاملة التي توفر لها عناصر النمو والنجاح ، وتعد لها الجند الصالح، فانها تحتاج الى المال في ذلك البناء والاعداد له ٠

ولذلك فقد كان خط الاسلام واضحا في تطويع المال لاغراض الدعـوة ومتطلباتها ، وقد حرص على ان يربى أتباعه على البذل والعطاء في سبيل اعلاء كلمة الله وبناء الجماعة الناشئة ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرق الفقراء من اصحابه في مكة ـ قبل الهجرة ـ على أهل السعة ليقوموا بأمرهم ـ وكان أبو بكر رضي الله عنه يبذل الجزيل من ماله لشراء المستضعفين من العبيد المسلمين من مواليهم ليخلصهم من العذاب وليعتقهم بعد ذلك ٠ وبعد الهجـرة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والانصار فتقاسموا معهم الدور والاموال ، وحث على البذل والصدقة ليقيم شأن الفقراء والضعفاء من المسلمين ، ثم جاءت مرحلة الجهاد والغزو وما تتطلبه من مؤن وعتاد وازواد ، فكان المال من أركانها الاساسية الذي لا يمكن ان يتم بدونه شيء منها ٠ وكان المال يجمع مما تسمح به نفوس المؤمنين ، وقد كانوا رضوان الله عليهم مثالا للبذل وسماحة النفس والتضحية في هذا الباب ، وكان هذا المجال من ميادين المحنة والابتلاء لاولئك الذين شحت نفوسهم وبخلت فكان شحهم وبخلهم ذاك من المهلكات التي اردتهم وألحقتهم بركب النفاق ٠

فمن الامور التي أخذها القرآن على المنافقين ، شحهم وبخلهم الذي منعهـم من حمل نصيبهم في النفقة والصدقات ،

فأول ذلك بخلهم هم أنفسهم عن النفقة في سبيل الله وغلبة الشح علـى طبعهم ، وقد جاء وصفهم بذلك في سورة الاحزاب في قوله تعالى : «**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ٠ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**» (١) ٠ فقـد وصف الله سبحانه المنافقين بالشح في هذه الاية مرتين ، تأكيدا لهذا الوصف

---

(١) سورة الاحزاب : ١٨ ـ ١٩

الذي لزمهم ، «أشحة عليكم» ، أي بخلاء على المسلمين في حفر الخندق والنفقة في سبيل الله ـ وذلك ان الآية نزلت في غزوة الخندق ـ وهذا التفسير مروي عن مجاهد وقتادة(١) · وفسره بعضهم بأنه بخل بالنفقة على فقراء المسلمين ومساكينهم (٢) · وأيا كان ذلك فهو بيان لهذه الصفة القبيحة التي تمنعهم من البذل والنفقة في سبيل اللـــه ·

وقد وردت الاشارة الى تحريضهم على الامساك عن النفقة على المسلمين في اطار خطة تستهدف اخراج الرسول عليه الصلاة والسلام واصحابه من المدينة وازعاجهم عن الاستقرار فيها · وهو ما جاء على لسان عبدالله بن أبي لـــدى مرجعه من غزوة بني المصطلق وما كان من اعلانه العداء للمسلمين وجهره به ، فقد قال : والله ما أعدنا وجلابيب قريش هؤلاء الا كما قال الاول سمن كلبـــك يأكلك · وقال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل(٣) · وكـــان ضمن الوسائل التي اقترحها ابن أبي لاذلال المسلمين وتفريقهم هوايقـــاف المساعدات والنفقات عن أصحاب رسول الله حتى ينفضوا وذلك قول الله تعالى عنهم في سورة «المنافقون» : «**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**»(٤) · وقد ورد في سورة التوبة مزيد من الكلام عنهم في هذا الشأن ، فعندما نـدب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين الى الاستعداد لغزوة تبوك ، استأذن عدد من المنافقين ضنا بأموالهم وأنفسهم أن يجاهدوا بها في سبيل الله · وقـد حسبوا تخلفهم ذاك مغنما يفرحون له ويستبشرون به : «**فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ···**» الآيـــة.(٥) ·

وقد كان بخلهم ذاك وتخلفهم عن التضحية بأموالهم وأنفسهم سببا لهلاكهم واحباط أعمالهم وسقوطهم في الامتحان في أول الطريق ·· والله سبحانـــه

---

(١) القرطبي : تفسير : ١٤ : ١٥٢
(٢) المصدر السابق ·
(٣) انظر ما سبق.
(٤) سورة المنافقون : ٧
(٥) سورة التوبـة : ٨١

وتعالى غني كل الغنى عن أموالهم ومجهودهم ، وانما هيأ ـ سبحانه ـ لعباده فرص العمل والبذل والتضحية ليثيبهم عنها اضعافا مضاعفة ، ودعاهم الى الجهاد بالمال والنفس ليدخر لهم عليه الثواب الجزيل الوفير والرحمة الشاملة الواسعة · فلما أعرض هؤلاء أعرض الله عنهم وأحبط أعمالهم : «قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ · وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ »(١) ·

وقد عقب السياق بعد هذا بما يسلى به الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم وأصحابه المؤمنين حين ينظرون الى هذه الاموال والامكانيات البشرية تعطل عن ان توظفه في سبيل اعلاء كلمة الله ونصرة دينه ، فيحزنون ويتألمون ، لكن الله سبحانه وتعالى يبين لهم ان الاموال والاولاد ان فارقها التقوى والعمل لاعلاء كلمة الله ونصرة دينه تصبح مصدر مشقة وعذاب في الدارين ، فهي وسيلة الى رضوان الله وثوابه حين تجند في سبيل الله ، وهي مصدر شقاء وتعب وعذاب حين ينصرف المرء اليها وحدها جاعلا تحصيلها والحفاظ عليها كل همه وسعيه ، يقول سبحانه وتعالى : «فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ»(٢) ويقول في الآية الاخرى : «وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ»(٣) ·

وهناك صنف آخر من المنافقين قد ينفق حين يجد نفسه في أمر يستلزم النفقة والبذل ، ولكنه يفعل ذلك بنفس مكرهة ، فينفق عن غير طيب نفس ولا رضى بالنفقة ، جاء ذلك في صفة الاعراب الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ · وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»(٤) ·

---

(١) سورة التوبة : ٥٣ ـ ٥٤
(٢) سورة التوبة : ٥٥
(٣) سورة التوبة : ٨٥
(٤) سورة التوبة : ٩٧ ـ ٩٨

فهذا الصنف «يعد نفقته التي ينفقها في جهاد مشرك او في معونة مسلم ، او في بعض ما ندب الله اليه عباده ـ مغرما ـ يعني غرما لزمه لا يرجو له ثوابا ولا يدفع به عن نفسه عقابا» (١) ٠

ليس هذا فحسب ، ان هؤلاء لا يكتفون بالبخل بأموالهم ، وتحريضهم غيرهم على الامساك وعدم النفقة ، بل يتجاوزون ذلك الى السخرية من المسلمين عندما يرون منهم اقبالا على النفقة باليسير الذي في ايديهم ، ويشككون في بذل ذوي السعة منهم من ينفق المال الكثير الجليل ، فيصفونه بالرياء شغبا وحسدا وامعانا في الفساد : «**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**»(٢) ٠ قال الواحدي في سبب نزول هذه الآية عن قتادة وغيره :

«حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة ، فجاء عبدالرحمن ابن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : يارسول الله ، مالي ثمانية آلاف جئتك بنصفها فاجعلها في سبيل الله ، وأمسكت نصفها لعيالي ٠ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما اعطيت وفيما أمسكت ـ فبارك الله في مال عبدالرحمن حتى انه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ماله لهما مائة وستين الف درهم ٠ وتصدق يومئذ عاصم بن عدي بن العجلان بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الانصاري بصاع من تمر وقال يارسول الله بت ليلتي أجر بالجرير (٣) الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لاهلي اأتيتك بالاخر٠ فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بنثره في الصدقات ٠ فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبدالرحمن وعاصم الا رياء ، وان كان الله ورسوله غنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب ان يذكر نفسه»(٤) ٠

ويتحدث القرآن عن نموذج آخر من هؤلاء ممن ارداه بخله وأدى به الى النكوث عن عهده لله ، وأعقبه نفاقا في قلبه ٠ هذا الصنف هو ذلك الانسان

---

(١) الطبري : تفسير : ١٤ : ٤٣٠ ، القرطبي : تفسير : ٨ : ٢٣٤
(٢) سورة التوبة : ٧٩
(٣) الجرير : الحبل .
(٤) الواحدي : أسباب نزول القرآن : ٢٥٥ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٤ : ١٩٦ ، الطبري : تفسير : ١٤ : ٣٨٧

الذي يبدأ بداية سليمة حسنة مع ربه ثم يصبح ماله ـ حين يثرى ـ سببا لهلاكه لانه ينسى منطلقه الاول وما كان من أفضال الله سبحانه عليه ، وما عرفه من حق الاسلام وأهله ودعوته في نفسه وماله ، ينسى ذلك كله ويصبح عبدا لماله يثمره وينميه ويحرص عليه ويبخل به · وهذا الصنف هو الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله : «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ · فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ· فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» (١) ·

ذكر الواحدي وغيره(٢) في سبب نزول هذه الآية الكريمة ان ثعلبة بن حاطب الانصاري(٣) أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه · ثم قال مرة أخرى : أما ترضى ان تكون مثل نبي الله ، فوالذي نفسي بيده ، لو شئت ان تسيل معي الجبال فضة وذهبا لسالت · فقال : والذي بعثك بالحق نبيا لئن دعوت الله ان يرزقني مالا لأوتين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا · فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة

---

(١) سورة التوبة : ٧٥ ـ ٧٧

(٢) الواحدي : اسباب نزول القرآن ٢٥٢ الطبري : تفسير : ١٤ = ٣٧٠ـ٣٧٢ ، السيوطي : لباب النقول في اسباب النزول ، بهامش الجلالين ص ٢٧٤

(٣) ويرى ابن حجر ان هذه القصة لا تصح عن ثعلبة بن حاطب الانصاري الذي شهد بدرا واستشهد بأحد ، لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا والحديبية ·حكى صلى الله عليه وسلم عن ربه انه قال لاهل بدر : اعملوا ما شئتم فاني قد غفرت لكم فمن تكون له هذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقا في قلبه وينزل فيه ما نزل فالظاهرة انه غيره · الواحدي : اسباب النزول · تحقيق السيد أحمد صقر تعليق : ٣ ص ٢٥٢ ·

وقال الاستاذ محمود محمد شاكر في تعليقاته النفيسة على تفسير الطبري : أما ثعلبة بن حاطب الانصاري ففي ترجمته خلط كثير ، أهو رجل واحد ام رجلان؟ أولهما هو الذي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين معتب بن الحمراء ، والذي شهد بدرا وأحدًا · والاخر صاحب هذه القصة يقال ان الاول قتل يوم احد وجعلها بعضهم رجلا واحدا ونفوا ان يكون قتل يوم أحد · اهـ .

انظر التعليق والمراجع في الطبري جـ ١٤ ص ٣٧٢ تعليق رقم ٢ ·

ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات الا الجمعة ، وهي تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة · فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا: اتخذ غنما وضاقت عليه المدينة وأُخبر بخبره ، فقال : يا ويح ثعلبة ـ ثلاثا ـ وأنزل الله عز وجل : «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا» وانزل فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة ـ رجلا من جهينة ورجلا من بني سليم ـ وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة ، وقال لهما مرا بثعلبة وبفلان ـ رجل من بني سليم ـ فخذا صدقاتهما · فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثعلبة : ما هذه إلا جزية ! ما هذه إلا أخت الجزية ! ما أدري ما هذا ! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا الي · فانطلقا وأخبرا السلمي ، فنظر الى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة. ثم استقبلهم بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب هذا عليك ، وما نريد ان نأخذ هذا منك · قال : بلى خذوه ، فان نفسي بذلك طيبة ، وانما هي إبلي فأخذوها منه ، فلما فرغا من صدقتهما رجعا حتى مرا بثعلبة ، فقال : أروني كتابكما حتى انظر فيه ، فقال : ما هذه الا أخت الجزية ! انطلقا حتى أرى رأيي · فانطلقا حتى أتيا النبي عليه السلام فلما رآهما قال : يا ويح ثعلبة ، قبل ان يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة واخبروه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي ، فأنزل الله عز وجل : «وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ» إلى قوله تعالى : «وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» · (١)

قال القرطبي : وثعلبة بدري انصاري وممن شهد الله له ورسوله بالايمان فما روي عنه غير صحيح · قال أبو عمر : ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم»(٢) ·

وقد اوردنا هذا الخبر على ما فيهمن الضعف مستأنسين به في الدلالة على معنى الآية الكريمة مقتدين في ذلك بمن اورده من أصحاب التفسير ، وفي الخبر عبرة وعظة ، وهو في مجمله يرسم صورة تتكرر في حياة البشر وتدل على بعض أحوالهم التي تقررها هذه الآية الكريمة ·

---

(١) الواحدي : أسباب نزول القرآن : ٢٥٢ وما بعده .
(٢) القرطبي : تفسير : ٨ : ٢١٠

وقد روى القرطبي عن الضحاك ان الآية نزلت في رجال من المنافقين ، نبتل بن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قُشَيْر • ثم عقب على هذا بقولـــه : «وهذا اشبه بنزول الآية فيهم ، الا ان قوله فأعقبهم نفاقا يدل على ان الذي عاهد الله لم يكن منافقا من قبل ، الا ان يكون المعنى : زادهم نفاقا ثبتوا عليه الـى الممات ، وهو قوله تعالى : «**إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ**»(١) •

ولقد كان البخل والشح وكراهة النفقة من صفات المنافقين الغالبة عليهم، وقد امتحنهم الله وابتلاهم فخسروا الامتحان ووقعوا في محنة البلاء وغـــلب عليهم شحهم «فأعقبهم نفاقا الى يوم يلقونه» • فصار هذا الشح والبخل بالمال من صفاتهم التي وسمهم بها القرآن الكريم : «**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**»(٢) • فَهُم«**أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ**» ، وهم «**لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ**» ، وهم ان فعل أحدهم ذلك فانه «**يَتَّخِذُ مَا أَنْفَقَ مَغْرَمًا**» ، ثم هم يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، و «**يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**» • تلك اوصاف المنافقين وحالهم في شأن باب من اهم أبواب الجهاد والتضحية ، الجهاد بالمال • واذا كان شأنهم هكذا في أمر المال ، فهم بالجهاد بالنفس أشد بخلا واكبر نكوصـــا وهو سنتحدث عنه فيما يأتي :

---

(١) المصدر السابق •
(٢) سورة التوبـة : ٦٧

رابعـا ـ موقف المنافقين من الجهـاد :

لقد سبقت الاشارة الى دور المنافقين ومواقفهم من الجهاد عند الحديث عن المظاهر العملية لتحركات المنافقين ، بما يغني عن تفصيل الحديث في الموضوع مرة أخرى(١) · والذي نقصد اليه في هذه الصفحات هو عرض ملامح هذا الموقف كما تصوره الآيات القرآنية الكريمة وكما يبدو فيما يمكن ان نصفه «بصورة النظرية» ·

وموقف المنافقين من الجهاد هـو ـ في اختصـار ـ موقـف «التخلف ، والنكوص ، والتثبيط والتخذيل» · وقد كان موقفهم ذاك في صورة التي تكرر بها في مراحل الصراع بين الاسلام وأعدائه من أشق واشد المواقف على كتيبة الاسلام ، وان كان من وجه اخر ، مصدر تصفية وتنقية وتمحيص ، حتى تصفو الجماعة المسلمة من كل غبش وكدر وفساد ·

وكان الجهاد فريضة امتحان وابتلاء ، سقط فيها المدعون وآجتازهـا المؤمنون الصادقون بنجاح ضمن لهم الفوزين ، ونالوا الفضلين ، النصـر والشهادة ·

ولما كان الجهاد دعوة للتضحية بأغلى مايمكن ان يجود به الانسان ، فان الاستجابة لفرض القتال لم تكن واحدة ، وسرعان ما ظهرت النفوس المترددة التي تؤثر العافية ، وتركن الى الدعة ، ولا تنشط الى مثل هذه التضحيـة الكبيرة ، وقد صور القرآن الكريم هذه النماذج في اكثر من آيـة :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا»(٢) ·

فهذه ملامح نفر من الناس لم يتمكن الايمان من نفوسهم فيبصروا الحقائق الكبيرة التي جاء الاسلام يركزها في نفوس الناس، وهي ان الله وحده سبحانه هو النافع الضار،

---

(١) انظر ما سبق
(٢) سورة النساء : ٧٨

وانه وحده المؤثر في الحياة والاحياء ، فهو وحده يجب ان يخشى، وان خشية غيره معه ، فساد في التصور ، وضعف في الايمان · ولكن هؤلاء المنافقين لا يرتفعون الى ادراك هذه الحقيقة فهم «يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية» ·· ثم هم لا يفقهون من أسرار الحياة أظهرها واوضحها ، وهو أنها زائلة فانية ، قليلة المتاع محدودة الامد ، وان الفوز والخير كل الخير لمن سعى للاخرة واتخذ سبيله للفوز برضى الله سبحانه وتعالى ·· انهم يتعلقون بمتاع هذه الحياة القليل الضئيل ، ولا يتطلعون الى وراء ذلك ، ولذلك فان نفوسهم تنفر من القتال وتتخاذل عنه لظنها أنه سيكون السبب لقطع ذلك المتاع وانهائه ·

وتتكرر صورة هذا الصنف مرة أخرى في سورة «محمد» عليه السلام في قوله تعالى : «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ»(١) ·

فهذا هو موقفهم من فرض القتال ؟ موقف المتشبث بالحياة ، المتعلق بأسبابها ، موقف الشخص الذي لا يجد من نفسه ادنى تطلع للتضحية بنفسه او تعريضها لخطر الموت ، يحصر همه كله في هذه الحياة الدنيا ومتاعها ولا يلتفت الى ما وراء ذلك ، ولذلك فقد كان أثر فرض القتال على هذا الصنف من الناس بالغ الشدة والثقل ، وكان كل تجاوبهم معه هو هذه النظرة الهالعة البائسة المتشبثة بالارض والتراب · وهكذا فقد جاء فرض الجهاد مصدر تصفية وتمحيص يكشف عن معدن المؤمن المجاهد الصادق ، والمنافق المتردد الكاذب · قال سبحانه وتعالى : «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ»(٢) ، وقال : «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ـ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ»(٣) وقال سبحانه : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ··»(٤) ·

---

(١) سورة محمد : ٢٠
(٢) سورة محمد : ٣١
(٣) سورة آل عمران : ١٦٦ ـ ١٦٧
(٤) سورة التوبة : ١٦

وعلى امتداد الفترة ما بين نزول فرض الجهاد الى ان تحقق الفتح والنصر ، تعرض الآيات القرآنية الكريمة موقف المنافقين في ذلك الصراع الدائر وما كان من أمرهم فيه ، وفيما يلي سنورد ملامح من هذه المواقف كما جاء بها القرآن لترسم لنا هذا النموذج الخانس المتردد ودوره في ذلك الصراع المتصل ٠

يذكر لنا القرآن ان موقف المنافقين كان غالبا هو موقف المتفرج الذي يقف على بعد ينتظر نتائج الصراع الدائر بين المسلمين واعدائهم ـ او بمعنى اخر ، هو موقف طرف ثالث يشهد صراعا بين معسكرين وهو لا يريد ان يحسم امره بالانضمام الى أحدهما وقطع صلته بالثاني ، ولكنه يرقص بينهما كالبهلوان ليضمن لنفسه مكانا مع الغالب منهما حسب زعمه ٠ وقد وردت صورتهم هذه في كتاب الله سبحانه وتعالى في غير ما موضع ، يقول سبحانه : «الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا : أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٠٠» (١) ٠

وقال سبحانه وتعالى : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ، وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ، يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا» ٠(٢)

وقال عزّ من قائل : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ، فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ، وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ، وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ »(٣) ٠

ووصفهم بهذه الصفة بقوله تعالى : «إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ،

---

(١) سورة النساء : ١٤١
(٢) سورة النساء : ٧٢ ـ ٧٣
(٣) سورة العنكبوت : ١٠ ـ ١١

فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ»(١) · وقال سبحانه : «وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ··»(٢)

ومن خلال النصين الاخيرين يضيف المنافقون الى موقف المتفرج المتربص، موقف الشامت الحاسد الذي تتأجج في دخيلة نفسه نيران الحقد والكراهية لهذه الفئة المؤمنة التي جرت عليهم موقفهم الحرج المتردد ·· «ان تصبك حسنة تسؤهم» ···· «يتربص بكم الدوائر» · فهم يستاءون من كل خير ينالـــه المسلمون ، وينتظرون الاحداث على أمل ان يلم منها ما يكون فيه هـــــلاك المسلمين وخسارتهم ·

وهم قد نهجوا منهج الابطاء والتخلف والتربص والترقب ، يقصدون منه عدم التورط في موقف حاسم يؤدي بهم الى خسارة محتملة في أحد الجانبين ، وهم ــ مع هذا ــ يعملون جهدهم الا يفوتهم شيء من الغنم الذي يحرزه أحد الفريقين ··· فحين يتعرض المسلمون لمصيبة او هزيمة قال قائلهم : «قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا» ·· اما اذا كانت الثانية ، ونال المسلمون نصرا او مغنما فهناك الادعاء العريض « «إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ» · ولكن الصراع الدائـــر المتصل بين المسلمين وأعدائهم من الشركين واليهود ، والذي لم يفتر أبـــدا ، كشف كل هذا الالتواء في مسلك المنافقين ، وظهر ترددهم ونلكؤهم وتخاذلهم واضحا صريحا ، لا يمكن اخفاؤه ولا التستر عليه ، وان كثرت الاعذار التي يدعونها ويلفقونها ·

ففي «احد» اعتذروا باستبعاد حدوث القتال ، وان كان سبب تخلفهـــم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَـــانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ، وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا : لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ»(٣) ·

فهذا عذرهم ، وهو عذر متهافت هزيل ، وما أدراهم الا يكون قتال ، ثم ان كان الامر ــ كما زعموا ــ مجرد رحلة استطلاعية لاقتال فيها ولا حرب ،

---

(١) سورة التوبـة : ٥٠ ــ ٥٢
(٢) سورة التوبـة : ٩٨
(٣) سورة آل عمران : ١٦٦ ــ ١٦٧

فأي بأس عليهم في أن يحضروها ويريحوا انفسهم من ذلك الاعتذار المتهافت الذي لا تقره أخلاق الفروسية والشهامة ؟! لقد كشف الله سبحانه وتعالى حقيقة عذرهم ذاك ، واظهر ما كانت تكنه ضمائرهم : «هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ»(١)

وقد أضاف هؤلاء الى جريمة قعودهم وتخلفهم ، الشماتة والتبجح فنسبوا شهادة من استشهد من المسلمين في الجهاد الى الجهل وعدم الانتصاح، «الذين قالوا لاخوانهم ، وقعدوا ، لو اطاعونا ما قتلوا» . فهم بتلك الموازين المعكوسة المقلوبة ، يرون الشهادة في سبيل الله ـ وهي أغلى واعلى ما يتمناه المؤمن الصادق ، يرون ذلك مصيبة فادحة يتجنبها العاقل الاريب !! . وهو فهم لا يمكن ان يصدر الا عن قلوب مريضة لم تعرف حقيقة الايمان الصحيح ولا الادراك السليم .

وتكررت من المنافقين مواقف مماثلة في اكثر من غزوة واكثر من مناسبة، وقد نزل القرآن يكشف حقيقة نواياهم ويفضح امرهم ويعرض منهم نماذج للخزي المجسم الكريه ..

ومما يذكر الله عنهم في غزوة الخندق ، قوله سبحانه في سورة الاحزاب: «قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ، أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ، أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَو أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ، وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا»(٢) .

فالمنافقون هنا كما تصورهم هذه الآيات هيكل من البناء الفاسد الذي تجتمع مقومات تكوينهم النفسي والاخلاقي لتجعل منهم مصدر تخذيل وتعويق، فهم يخذلون غيرهم ليكونوا مثلهم ، وهم ان الجأهم الامر الى القتال واضطروا اليه ، لم تكن منهم نكاية في العدو ولا كان لهم القتال شأن ... قد تمكن

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٧

(٢) سورة الاحزاب : ١٨ ـ ٢٠

منهم الشح والجبن ، فبخلوا بالمال وبالنفس ، فاذا طرأ سبب من أسباب الخوف أخذ منهم الهلع أقطار نفوسهم : «**فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**..» وهي صورة معبرة تكشف حقيقة هذه النفوس الهزيلة المهزوزة المهزومة . وقد أبرز السياق بعد هذا الجانب الاخر لسلوك هذه النفوس المهزوزة المتدنية التي تذوب خوفا وهلعا حال الشدة والباس ولا تكاد تتماسك لادنى خطر عابر ، ولكنها تستأسد في وقاحة متناهية عند انجلاء غمة الخوف وذهاب أسبابه . ، «**فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ**» ؟!

جاء في تفسير القرطبي : «قال قتادة : ومعناه : بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنائم ، يقولون : اعطنا ، أعطنا ، فانا قد شهدنا معكم . فعند الغنيمة اشح قوم وأبسطهم لسانا ،، ووقت الباس أجبن قوم واخوفهم . قال النحاس : هذا قول حسن لان بعده : «أشحة على الخير» . وقيل المعنى : بالغوا في مخاصمتكم والاحتجاج عليكم . وقال القتبي : المعنى آذوكم بالكلام الشديد»(١) . وبكل هذه المعاني التي جاءت في التفسير وصفهم القرآن الكريم في غير ما موضع . وقد عقب سياق الآيات على مسلكهم ذاك فأرجعه الى سببه الاصيل وباعثه الحقيقي ، وهو انعدام الايمان وخلو قلوبهم منه : «... **أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ، يَحْسَبُونَ الاحزابَ لَمْ يَذْهَبُوا ، وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا**»(٢) . فهم لفرط خوفهم وجبنهم يظنون ان الاحزاب لم ينصرفوا ، وقد كانوا انصرفوا ، وان وان يرجع الاحزاب اليهم للقتال لتمنوا أنهم كانوا مع الاعراب في باديتهم بعيدا عن موقع القتال ، خوفا من القتل وتربصا للدوائر ، يسألون عن أخبار المسلمين من غير حضور للقتال لفرط الجبن والخوف ... وهم حتى لو كانوا مع المسلمين شاهدين القتال ما قاتلوا الا قليلا ، اي رميا بالنبل والحجارة من غير مباشرة للقتال .. وأصل ذلك كله هو ما نصت عليه الآية الكريمة من فراغ قلوبهم من الايمان : «**اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم**» . وقد ورد تفصيل تخلفهم ونكوصهم عن النفقة والجهاد في غزوة تبوك ، وكانت في رجب سنة تسع للهجرة ، وكان يقال لها الفاضحة ، لانها أظهرت حال كثير من المنافقين(٣) .

---

(١) القرطبي : التفسير : ١٤ : ١٥٤

(٢) سورة الاحزاب : ١٩ ـ ٢٠

(٣) السيرة الحلبية : ٣ : ٩٩ وما بعدها .

وقد ندب الرسول عليه السلام الناس الى هذه الغزوة ، وأعلن عن وجهته التي يريد ليأخذ الناس أهبتهم لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ، وأمر ـ عليه السلام ـ الناس بالجهاز وبعث الى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله ٠

وقد حفظت السيرة من مسارعة الصحابة رضي الله عنهم ، ونشاطهم للبذل والجهاد أروع الصور وأعظمها ، وفي مقابل ذلك كان موقف أهل النفاق ـ في كل وجوهه ـ أبشع صور النكوص والتخاذل ، وقد تحدثت آيات سورة التوبة عن موقفهم ذلك في تفصيل كبير ، ورسمت فيه صورة دقيقة كشفت فيها أمر المنافقين وما كان منهم آنذاك ٠ وبدلا من ان يستجيب المنافقون لداعي الجهاد اذا بهم يستاذنونه صلى الله عليه وسلم في التخلف عنه والقعود في بيوتهم وبين أهلهم حين خرج الى تبوك ٠ وقد كان استئذانهم ذاك مجرد محاولة لاخفاء مظهر شكلي على موقفهم يظهر ان تخلفهم ذاك لم يكن عنادا وتملصا ، ولكنه كان مشروعا باذن من القائد نفسه صلى الله عليه وسلم٠

وقد كشف الله سبحانه وتعالى لنبيه عليه السلام بواعث ذلك التخلف مبينا انه لو كان الامر امر غنيمة حاضرة او موضع سهل قريب لنفروا ، ولكن الموضع بعيد ، والسفر شاق والزمان زمان حر وقيظ فآثروا الراحة والعافية ، وكانت تبطئة من عند انفسهم وزهادة في الخير : « **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ، وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٠ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ**»(١) ٠

وقد كشفت الآية أنهم كاذبون في ادعائهم عدم الاستطاعة ، رغم تأكيدهم دعواهم تلك ـ على عادتهم ـ بالايمان التي يحلفون بها ، لانهم كانوا للخروج مطيقين بوجود السبيل الى ذلك بالذي كان عندهم من الاموال مما يحتاج اليه الغازي في غزوه ، والمسافر في سفره ، وصحة الابدان وقوت الاجسام(٢) ٠

وقد عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في اذنه لمن أذن لهم في التخلف عنه من المنافقين ، وأعلم انه ما كان ينبغي له ان يأذن لهم في

---

(١) سورة التوبة : ٤٢ ـ ٤٣
(٢) القرطبي : تفسير : ١٤ : ٢٧٢

التخلف عنه حتى يعرف من له العذر منهم في تخلفه ، ومن لا عذر له منهم ، فيكون الاذن لاصحاب الاعذار على علم بعذرهم ، ويعلم من الكاذب منهم المتخلف نفاقا وشكا في دين الله · وذلك حتى تتحقق حكمة الابتلاء بمثل هذه المناسبات التي يتبين فيها المدعي من المحق ، والصادق من الكاذب ·

وقد بينت الآيات بعد ذلك أنه لا يستأذن في التخلف عن الجهاد بغير عذر الا منافق لا يؤمن بالله واليوم الاخر ، أما الذي يصدق بالله ويقر بوحدانيته وبالبعث والدار الاخرة والثواب والعقاب فانه لا يستأذن في ترك الغزو وجهاد أعداء الله بماله ونفسه · اما الذين لا يصدقون بالله ولا يقرون بتوحيده ، وداخل قلوبهم الشك في حقيقة وحدانية الله وفي ثوابه أهل طاعته وعقابه أهل معاصيه · فهم يعيشون تحت وطأة شكهم ذاك في ظلمة الحيرة ، لا يعرفون حقا من باطل ، ولا يتأتى لهم الرأي الصحيح ، فمن ثم فهم لا يبصرون ما في الجهاد من خير وفضل ، فينتحلون الاسباب للتخلف عنه : «**لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ · إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**» (١) ·

وقد ذكرت الآيات بعد هذا ان الله سبحانه وتعالى ثبط المنافقين وكره انبعاثهم للقتال لحكمة أرادها من ذلك ، فلا فائدة ترجى من خروجهم ، بل ان قعودهم أفضل وأنفع ، فهم لو خرجوا ما زادوا المسلمين الا مشقة وبلبلة وخبالا بسبب مسلكهم الخبيث الملتوي ، وشغبهم المرهق المتصل على المسلمين حتى في احرج الاوقات ، ولحاولوا جهدهم ايقاع الفتنة بين المسلمين بما درجوا عليه وتعودوه من أساليب الشغب والاذى · وقد كان ذلك شأن المنافقين مع نبي الله والمسلمين قبل ذلك فيأكثر من موقف واكثر من مناسبة، «**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ · لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ · لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**»(٢) ·

---

(١) سورة التوبة : ٤٤ ـ ٤٥
(٢) سورة التوبة : ٤٦ ـ ٤٨

ولا ينتظر من قوم هذا شأنهم ان ينشطوا للجهاد · ويتهيأوا له وقد عدموا الحافز الاساسي لذلك ، وهو الايمان بالله ورسوله وما جاء به ، ولذلك فقد ظلت مقاييسهم كلها ارضية تقيس الامور في الحرب والسلم بمقياس المنفعة القريبة القليلة ، حتى انهم ليعدون الراحة والدعة والخفض مغنما يفرحون به ويتخلفون لاجله عن الجهاد في سبيل الله ، ثم يرون ذلك من حسن التدبير ، لانه يحفظ لهم أموالهم وأنفسهم – بزعمهم –ويجنبهم ما يخشونه من الوان العنت والمشقة ·· وهي نظرة أقل ما يقال فيها أنها محدودة الافق ، قريبة الغور ، شديدة الضحالة ، «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ »(١) ·

وهذا باب أظهر من ان نفيض في استقصاء ملامحه هنا ، وفيما تقدم ما يصور للقارىء موقف المنافقين من فريضة الجهاد · وهو موقف متخاذل متردد، قوامه التخلف عن الجهاد ، وحجب كل ما يملكون من قوى مادية ومعنوية عن الجماعة المسلمة في ساعات هي أشد ما تكون حاجة اليها ، وتخذيل المسلمين ، والارجاف بهم ، والشغب عليهم ، وادخال الخبال والفتنة في صفوفهم ، وتحرض اعدائهم عليهم ، والقاء المودة الى هؤلاء الاعداء (٢) · وهذه مواقف أقل ما يقال في الواحد منها انه خيانة لله ورسوله وللمؤمنين ، فما بالك اذا اجتمعت كلها في صعيد واحد ؟!

---

(١) سورة التوبة : ٨١

(٢) انظر ما سبق : ٣٢ ـ ٣٤

الفصل السادس

المِلامحْ العَامَّة لظاهِرة النِفَاقْ

الملامح العامة لظاهرة النفاق

واذا اردنا ان نستجمع الملامح العامة التي تدخل في الاطار العـــام لظاهرة النفاق ، فاننا نجد انفسنا امام جماعة مدخولة من الناس تعلن الايمان وتبطن الكفر ، ويخالف ظاهرها باطنها ، تقودها طموحات سياسية خاصـــة كانت قد تبلورت قبل مجيء الاسلام الى المدينة واستبابه فيها ، فأبت ان تنصهر في البناء الجديد او ان تأخذ سبيلها في اطاره · ولكنها كانت تسلك مسلـك المعارض الحذر الذي راهن فـي اعادة بناء شخصيته وأمجاده على اضمحلال بناء الاسلام الجديد وسقوطه ، ولذلك فقد صاحب ذلك التربص والانتظار مـن قبل المنافقين تحركات ومواقف تعمل في مجملها على المساعدة على الاطاحة ببناء الاسلام وهدمه ـ وقد قاد هذه الطائفة عبدالله بن أبي بن سلول ، الذي عرضنا فيما سبق الى صور من نشاطه وتحركاته ·

وقد كان ابن أبي يجسم نموذجا للشخص المتردد الذي ضاع بين تطلعاته الى ملك كان على وشك ان يسلم اليه ، وبين احجامه عن الانسجام مـــع البناء الجديد للمجتمع المسلم الناشيء· فذلك التطلع الى الرئاسة منـــــع ابن أبي من استيعاب ابعاد الدعوة الجديدة التي جاءت في اول الامر تلتمس جوارا لدى أهل يثرب فما برحت ان استخلصتهم لنفسها جنودا وانصارا · وبدلا من ان يمثل أمر حماية هذه الدعوة الجديدة جزءا من التحرك الجانبي في أحداث الحياة السياسية والاجتماعية ليثرب أصبحوا جزءا من هذه الدعوة ما زالت به حتى اتخذته منطلقا الى الاستقرار والانتصار ·· وبينما كانـت جموع المهتدين من الانصار وابنائهم يحلقون في أجواء الوحي والنبوة وينعمون بأنوار رسالة الاسلام ويعيشون أبعاد الرسالة الالهية بمسئولياتها الكاملـــة في تفان وايثار ، كان عبدالله بن أبي ينظر الى النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه على أنهم فئة طارئة جلبها صراع داخلي بين بيوتات قريش سوف ينتهي بانتصار محمد عليهم او بانتصارهم عليه ، او بصورة أخرى من صور الحل الذي ينجم عنه انتهاء هذه القوة الطارئة ، وعودة المياه الى مجاريها، وابن أبي الى رئاسته ومكانته · فكان من سياسة ابن أبي التي نهجها لنفسه ان يحتفظ بمقومات الرئاسة فكان يظهر استخفافه بأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلم يكن يستشعر له ايمان التابع المصدق للرسول المؤتمن ـ وحين

أبي قومه الا الدخول في الاسلام دخله هو على نفاق وضغن وحرص دائمـــا ان يضع نفسه في الموقع الذي يؤكد له القيادة والرئاسة والفعالية ، ولم يقنع ان يربط مصيره بمصير الرسول عليه السلام ومصير الدعوة الاسلامية وأتباعها ولم تكن عنده ثقة في انتصارهم وغلبتهم ، فكان يحذر الدوائر ويحتاط لهـــا ، ويؤكد ارتباطه بحلفائه من اليهود ويحميهم ويقف الى جانبهم ٠

وقد كان ابن أبي رأسا لتيار القوى المترددة التي كانت تكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداء وتتربص به الدوائر وتحاربه بكل أسلوب خفـــي ، ولكنها لم تجرؤ على حرب معلنة ضده ، لان الاسلام استطاع ـ وهو يمتلك قلوب الانصار وأرواحهم ـ ان يحدث خلخلة حقيقية في ذلك المجتمع ، وان يضم الى صفوفه الاكثرية الغالبة وان يمزج بين أبنائه من مختلف القبائل والبيوتات فلـم يصف للمعارضة سند ترتكز اليه فكانت في موقفها المتردد الخانس تصدر عن ادراك حقيقي لقوة الاسلام وتغلغله في أوساطها ٠ وكان تيار المنافقين في المدينة يمثل ـ كما قلنا ـ طائفة من الناس المدخولين في عقيدتهم ممن غلبت عليهـم تصوراتهم وعقائدهم القديمة لشدة الفهم لها ، ولامتداد جذورهم فيها ـ فلـم يعرف نفاق في الشباب الا في شخص واحد(١) وقد غلب تيار الاسلام علـى هؤلاء وأعجزهم عن الوقوف في وجهه فآثروا التظاهر به في علانيتهم مبيتين الكفر في سرائرهم فهم لا يدخرون وسعا في حربه بوسائلهم الملتوية الخفيـــة ، ولا يفوتون فرصة لتوهين المسلمين والاستهزاء بهم واشاعة الفوضى فيهم تارة بخذلان المسلمين والارجاف بهم وتقوية الاعداء عليهم ، وتارة بنشر الاشاعة وقالة السوء في المجتمع المسلم ، واخرى باظهار التكذيب للرسول عليه السلام وانكار ما يجريه الله على يديه من آيات ومعجزات ، ومع ذلك كله موالاة اعداء الله ورسوله من المشركين واليهود ، وموادتهم وتحريضهم على حرب اللـــه ورسوله ٠

وقد عرضنا فيما تقدم لمواقفهم كما رسمتها أحداث السيرة وكما بينها القرآن الكريم ٠ ولا بأس باسترجاع ملامحها هنا في اختصار شديد ٠

اما في اطار العقيدة وما يتعلق بتصوراتهم عن الله والالوهية وعن النبي عليه السلام ورسالته ، وعن آيات الله وهداه ، فقد كان موقفهم من اللـــــه

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ط٠ السقا واخرون ج ٢ : ١٧٦

سبحانه موقف الكفر وسوء الظن به سبحانه وعدم الثقة في وعده ، والخلف لعهودهم التي عاهدوا الله عليها ، والاعراض عن حكمه وأمره · اما موقفهم تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان موقف التكذيب والاساءة والاذى والاستهزاء والمعصية · ثم موقفهم من القرآن الكريم ومن آيات الله تعالى ، فهو يتردد بين الاعراض عنها ، والكفر والاستهزاء بها · وهم يفعلون هـذا كله مع دعواهم الكاذبة الباطلة أنهم مسلمون · ولكن تلك الدعوى قد كشف بطلانها حالهم بما ظهر منهم من افعال وأقوال ، وكشفها الله سبحانه وتعالى فيما انزله من الآيات التي نبهت الى عقائدهم الفاسدة ، وأقوالهم الباطلـة ، وأفعالهم الشريرة ·

اما بالنسبة لما يظهرونه من عبادات يورون بالالتزام بها فانهم في عباداتهم ـ وأهمها الصلاة ـ انما يصدرون عن الرياء المحض الذي لا يهتم باتيان العبادة على وجهها بقدر ما يهتم باظهارها شكلا امام الناس ، ولذلك فان الشخص من هؤلاء حين يأمن رقابة الناس فانه لا يأتيها ، ثم هو ان جاء بها كانت فارغة من الروح خالية من ذكر الله · اما ان كان في الاتيان بها شيء من المشقـة فانهم لا يأتون بها ، تهاونا بها ، وتكاسلا عنها · ولم يفتهم ان يطوعـوا مؤسسات العبادة نفسها لاهدافهم الخبيثة التي ترمي الى حرب المسلميـن والتفريق بينهم واشاعة الفوضى في صفوفهم وادخال الضرار عليهم ·

وحين يكون المطلوب من المنافقين هو البذل في سبيل الله والنفقة فـي أبواب البر والجهاد ، وفي سبيل اعلاء كلمة الله ، فان البخل والشح وكراهة النفقة هو صفتهم الغالبة التي تحول بينهم وبين البذل والنفقة · وقد امتحنهم الله تعالى وابتلاهم فخسروا الامتحان ووقعوا في محنة البلاء وغلب عليهـم شحهم فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ فصار هذا الشح بالمال مـن صفاتهم التي وسمهم بها القرآن الكريم فهم «يقبضون أيديهم» وهم «أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ» ، وهم «لَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ» · وان فعل أحدهم وأنفق فانـه «يتخذ ما أنفق مغرما» فهذا حال المنافقين في باب من أهم أبواب التضحيـة والجهاد ، الجهاد بالمال · واذا كان شأنهم هكذا في أمر المال فهم بالجهـاد بالنفس أشد بخلا واكبر نكوصا ، فقد كان موقفهم في الجهاد موقفا متخـاذلا مترددا قوامه التخلف عن القتال ، وحجب كل ما يملكونه من قوى ماديـة

ومعنوية عن الجماعة المسلمة في ساعات هي أشد ما تكون حاجة اليهـــا ، وتخذيل المسلمين ، والارجاف بهم ، والشغب عليهم وادخال الفتنة والخبال في صفوفهم ، بل وتحريض أعدائهم عليهم والقاء المودة الى هؤلاء الاعداء ..

اذن فقد كانت ملامح هذه الفئة من الناس ملامح متميزة المعالم واضحة الحدود تشكلها مواصفات خاصة في اطار واضح محدد تكون في مجموعهـــا ظاهرة النفاق والمنافقين التي يتحكم في اظهار شخصيتها تصورات خاصـــة للعقيدة ، وطموحات خاصة في العمل السياسي وفي الاطار الاجتماعـــي ، ومظاهر خاصة في السلوك .. ولذلك فقد حرص الاسلام على بيان ملامـــح هذه الفئة في اطار مواصفاتها المحددة ـ وجاء القرآن الكريم باوصافها دقيقة صريحة . وقد اهتم القران بالجانب الوصفي للظاهرة على انها ظاهرة تتكرر كلما اجتمعت لها تلك الاوصاف او بعضها . وكذلك كان الامر بالنسبة لحديث الرسول عليه السلام .

ولذلك فقد كان منهج الاسلام في كشف هؤلاء لا يتجه الى أشـــخاص بأعيانهم الا في اطار محدود وعندما كشف الله لنبيه نفرا منهم وعرفهم لـــه فقد احتفظ بذلك لنفسه وائتمن على العلم بهم واحدا من أصحابه فقط هو حذيفة ابن اليمان ، الذي كان يعرف بصاحب سر رسول الله(١) .

وقد أشار القرآن في صراحة الى ان معرفة هؤلاء انما تكون في معرفة سلوكهم ومواقفهم ، وقد جاءت سورة «التوبة» بشيء كثير من ذلك ، حتى انها كانت تعرف «بالفاضحة» لان الله سبحانه وتعالى كشف فيها سرائر أقـــوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون(٢) . وقال سبحانه وتعالى في سورة محمد : **«أَمْ حَسِبَ الذينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَـــاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ واللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ»(٣)** قال ابن كثير : يقول تعالى : **«أيعتقد المنافقون ان الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر»** وقد انزل الله تعالى في ذلك سورة «براءة» فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الافعـــال

---

(١) انظر ترجمة حذيفة رضي الله عنه في اسد الغابة . وفي الاستيعاب .
(٢) الطبري التفسير ج ١٤ : ٣٣٢ .
(٣) سورة محمد : ٢٩ ـ ٣٠

الدالة على نفاقهم ولهذا كانت تسمى «الفاضحة» . والاضغان جمع ضغن ، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للاسلام وأهله والقائمين بنصـــره . وقوله تعالى «**ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم**» يقول عز وجل : «**ولـــو نشاء يا محمد لاريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا**» ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه ، وحملا للامور على ظاهرة السلامة ، وردا للسرائر الى عالمها . «ولتعرفنهم في لحن القول » أي فيما يبدو من كلامهـــم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعنى كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول »(١) .

ولعله من المفيد ان نورد هنا المزيد من الآيات والاحاديث التي اظهـــرت معالم هذه الفئة وهذه الظاهرة ، مما فاتنا ايراده فيما تقدم من مباحث .

من ذلك قوله تعالى : «**الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِيـــنَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**» (٢) فتصفهم الآية . بأنهم ـ رجالا ونساء ـ صنف واحد ، وان أمرهم واحد ، «بعضهم من بعض» في اعلانهم الايمان واستبطانهم الكفر ، يأمرون بالمنكر ، وهو الكفر بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، وتكذيبه. وينهون عنالمعروف ، وهو الايمان بالله ورسوله ، وبما جاء به من عند الله . تركوا الله ان يطيعوه ويتبعوا أمره فتركهم الله من توفيقه وهدايته ورحمتـــه ، فهم المفارقون طاعة الله ، الخارجون عن الايمان به وبرسوله (٣) ؟ «**نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون**» .

وقال سبحانه وتعالى في صفتهم : «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَـــعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَـــهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**» (٤) .

ومثل ذلك قوله تعالى في صفتهم في سورة «المنافقون» : «**وَإِذَا رَأَيْتَهُـــمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**»(٥) .

---

(١) ابن كثير : التفسير : ج ٤ : ١٨٠ (٢) سورة التوبـة : ٦٧
(٣) انظر الطبري ، تفسير : ١٤ : ٣٣٨ ـ ٣٣٩ (٤) سورة البقرة : ٢٠٤ـ٢٠٦
(٥) سورة المنافقـون : ٤

فهم قوم تخالف أقوالهم افعالهم ، وتختلف دخيلتهم عن مظاهرهم وهيئاتهم ، ففي أقوالهم وهيئاتهم ما يوحي بالخير لحسن بيانهم وفراهتهم ولكنهم في حقيقتهم ، أهل فساد وشر خالين من كل خير ٠ لا يخافون الله ولا ينتصحون ولا يرتدعون ، ويأنفون في أنفسهم حتى لتأخذهم العزة باثمهم فلا يفيئون الى الله سبحانه ولا يتركون فسادهم وضلالاتهم ٠ قد تمكن منهم الجبن والهلع فهم دائما على وجل ان ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم(١)٠

وقد تحدثت آيات سورة «البقرة» وهي من اول ما نزل في شأن المنافقين ، تحدثت عن اوصاف مشابهة تؤكد شدة ايغالهم في الشر والفساد ، حتى ان مقاييس الخير والشر عندهم لشدة اختلاطها قد انقلبت الى عكس ما تدل عليه، فيحسبون الفساد الذي يصنعونه ويمكنون له بأقوالهم وأفعالهم ، يحسبون ذلك صلاحا بينما هو في الواقع من أشد ألوان الفساد والهدم ٠٠ «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**» (٢) ثم عقب على اوصافهم تلك بقوله : «**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**»(٢) وحسبك من خيبة هؤلاء وخسارهم ان يستبدلوا الخير بالشر ، والهدى بالضلال ، وهم يحسبون أنفسهم أهل علم وحذق ، وأنهم قد ماروا أنفسهم أفضل ما يصلح لها !!

وقد فصل القرآن الكريم في أوصاف المنافقين ، حتى لا يغيب شأنهم عن الناس ، وحتى ينتبه أهل الغفلة منهم فيتوبوا ويرجعوا ، ويحذر المؤمنون الصادقون الوقوع فيما يهلكهم ويرديهم من تلك الاوصاف القبيحة المشينة ، ثم ضرب الله لهم الامثال في كتابه «زيادة للكشف وتتميما للبيان»(٣) ٠ وذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة : «**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ٠ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ٠ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ، يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ٠ يَكَادُ**

---

(١) انظر القرطبي : تفسير : ١٨ : ١٢٤ ـ ١٢٥ ، ابن كثير : تفسير : ٤ : ٣٦٨ ، الزمخشري : الكشاف : ٤ ـ ٥٤٠ ٠

(٢) سورة البقرة : ١٢ ، ١٦ ٠

(٣) العبارة للزمخشري في الكشاف ج ١ : ٧٢

البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير »(١) ٠

وقد روى عن قتادة في معنى المثل الاول الذي ضرب الله للمنافقين ، وهو قوله تعالى : «مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون» قال قتادة : المعنى «ان المنافق تكلم بلا اله الا الله فأضاءت له في الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقن بها دمه وماله ٠ فلما كان عند الموت سلبها المنافق لانه لم يكن لها أصل في قلبه ولا حقيقة في عمله» (٢) ٠

وبالنسبة للمثل الثاني : «او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق» فقد صورهم في صورة «قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم «كصيب» والصيب «المطر نزل من السماء في حال «ظلمات» وهي الشكوك والكفر والنفاق «ورعد» وهو ما يزعج القلوب من الخوف فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى «يحسبون كل صيحة عليهم» وقال : «ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ٠ لو يجدون ملجأ او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون» ٠ و «البرق» هو ما يلمع في هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الاحيان من نور الايمان ٠ ولهذا قال : «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين» ٠ ثم قال : «يكاد البرق يخطف أبصارهم » اي لشدته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان ٠ ثم اورد ابن كثير قولين لابن عباس في تفسير قوله تعالى : «يكاد البرق يخطف أبصارهم» : اي لشدة ضوء الحق٠ والقول الثاني : يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ٠

وقال في قوله تعالى : « كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا» اي كلما ظهر لهم من الايمان شيء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك (فيها) أظلمت قلوبهم توقفوا حائرين ٠ وقال في رواية أخرى عنه : كلما اصاب المنافقين من عز الاسلام اطمأنوا اليه ، واذا أصاب الاسلام نكبة قاموا ليرجعوا الى الكفر»(٣) ٠

---

(١) سورة البقرة : ١٧ ـ ٢٠ (٢) ابن كثير : التفسير : ١ : ٥٤
(٣) ابن كثير : تفسير : ١ : ٥٤ ـ ٥٥

وقد استدل ابن كثير من هذين المثلين المضروبين للمنافقين على انهم ضربان : «منافقون خلص ، وهم المضروب لهم المثل الناري ، ومنافقون يترددون ، تارة يظهر لهم لمع الأيمان وتارة يخبو» (١) · وهو توجيه طريف ظاهره بأدلة أخرى من آيات وأحاديث لتدعيمه وتعزيزه · على ان الكثير من أهل التفسير وفي مقدمتهم ابن جرير الطبري ذهبوا الى أن هذين المثلين قد ضربا لصنف واحد من المنافقين · والامر كله لا يخرج عن نطاق منهج القرآن في بيان أحوال المنافقين وكشفها بمختلف أساليب البيان لكي لا يظل امرهم غامضا او ملتبسا ·

ومع آي القرآن الكثيرة التي بينت أحوال المنافقين وصفاتهم جاءت الكثير من الاخبار والاحاديث عن الرسول عليه السلام في ذلك بمزيد من البيان والتفصيل · · وفيما يلي مجموعة من الاحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ترسم صورا لهاته الفئة من الناس في العديد من أحوالها وصفاتها :

---

(١) حديث عبدالله بن عمرو ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : **«أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : اذا اؤتمن خان ، واذا حدث كذب واذا عاهد غدر ، واذا خاصم فجر»** (٢) ·

(٢) وفي الصحيحين عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا أوتمن خان** » · وزاد مسلم في روايته له « **وان صلى وصام وزعم انه مسلم** » · وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» ورواه أبو يعلى من حديث أنس ولفظه : قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : **«ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وان صلى وصام وحج واعتمر وقال اني مسلم ·· فذكر الحديث(٣) ·**

---

(١) المصدر السابق : ١ ـ ٥٦

(٢) اخرجه البخاري في كتاب الايمان باب علامة المنافق · اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : محمد فؤاد عبد الباقي : ج ١ : ص١٢ ·

(٣) اللؤلؤ والمرجان : ج ١ : ١٢ ، الترغيب والترهيب ج ٤ ص٩

(٣) جابر بن زيد عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، «ان اصل النفاق الذي يبنى عليه النفاق : الكذب(١) ٠

(٤) وفي مراسيل جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « **ان لا اله الا الله كلمة ألف الله بها بين قلوب المؤمنين ، فمن قالها واتبعها بالعمل الصالح فهو مؤمن ، ومن قالها واتبعها بالفجور فهو منافق»(٢)** ٠

(٥) جابر بن زيد : ان النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : ان الناس قد قالوا : لا اله الا الله فخفي بها المؤمن من المنافق ٠ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «**ألا أنبئكم بفصل ما بينهما : المؤمن اذا أصبح فهمه الله والجنة والنار ، وأما المنافق اذا اصبح فهمه بطنه وفرجه ودنياه»(٣)** ٠

(٦) الامام أحمد : حدثنا أبو النظر حدثنا أبو معاوية شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح ٠ فأما القلب الاجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الاغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ، ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المادتين غلبت على الاخرى غلبت عليه»(٤)** ٠

وفي مسند الامام أحمد من طريق أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ان للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المسجد الا هجرا ، ولا يأتون الصلاة الا دبرا ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون خشب بالليل صخب بالنهار»** وقال يزيد بن مرة : «سخب بالنهار» (٥) ٠

---

(١) مسند الربيع بن حبيب ج ٤ : ١٩ حديث (٩٤٦)
(٢) المصدر السابق : ج ٤ : ١٣ حديث (٩٢٤)
(٣) المصدر السابق : ج ٤ : ١٣ ـ ١٤ حديث (٩٢٥) ٠
(٤) مسند احمد بن حنبل ج ٣ : ١٧ ، وانظر ابن كثير تفسير ١ : ٥٦ وقال : وهذا اسناد جيد حسن
(٥) مسند احمد بن حنبل ج ٢ : ٢٩٣

(٨) جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : «**خصلتان لا تجتمعان في منافق ، حسن سمت وفقه في سنة**»(١) ٠

(٩) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ان أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لاتوهما ولو حبوا ، ولقد هممت ان آمر رجلا فيصلي بالناس ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب الى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار**» (٢) ٠ وقد تتبعنا الاحاديث التي تناولت حال المنافقين في الصلاة في الفصل الذي عقدناه لهذا الموضوع فأغنى عن اعادتها هنا(٣) ٠

(١٠) ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**ظهرت لهم الصلاة فقبلوها ، وخفيت لهم الزكاة فأكلوها ، اولئك هم المنافقون**»(٤) ٠

(١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أظلكم شهركم هذا بمحلوف رسول الله صلى الله عليه وسلم** ، ما مر بالمسلمين شهر خير لهم منه ، ولا مر بالمنافقين شهر شر لهم منه ٠ بمحلوف **رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله ليكتب أجره ونوافله قبل ان يدخله ، ويكتب اصره وشقاءه قبل ان يدخله ، وذلك ان المؤمن يعد فيه القوت من النفقة للعبادة ويعد فيه المنافق اتباع غفلات المؤمنين واتباع عوراتهم فغنم يغتنمه المؤمن**» ٠ وقال بندار في حديثه : «فهو غنم للمؤمنين يغتنمه الفاجر» (٥) ٠

(١٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله عليه السلام : «**ماذا يستقبلكم وتستقبلون ؟ ثلاث مرات** ٠ فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، وحي نزل ؟ قال : **لا** قال عدو حضر ؟ قال : **لا** قال : فماذا ؟ قال : « **ان الله يغفر في أول ليلة من شهر رمضان لكل أهل هذه القبلة،**

---

(١) مسند الربيع بن حبيب ج ٤ : ٢٨ حديث (٩٨٥)
(٢) متفق عليه (٣) انظر ما سبق .
(٤) رواه البزار ، المنذري : الترغيب والترهيب ج ١ : ٥٤٣
(٥) الترغيب والترهيب : ٢ : ٩٧

واشار بيده اليها» · فجعل رجل بين يديه يهز رأسه ويقول : بخ بخ · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا فلان ، ضاق به صدرك ؟ قال لا ولكن ذكرت المنافق · فقال : **«ان المنافقين هم الكافرون ، وليس للكافرين في ذلك شيء»**(١) ·

(١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق»**(٢)·

(١٤) عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه ، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «القتلى ثلاثة : رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى اذا لقي العدو وقاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون الا بفضل درجة النبوة · ورجل فرق على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى اذا لقي العدو قاتل حتى يقتل ، فتلك ممصمصته محت ذنوبه وخطاياه · ان السيف محاء للخطايا ، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء ، فان لها ثمانية أبواب ولجهنم سبعة أبواب وبعضها افضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله حتى اذا لقي العدو قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يقتل ، فذلك في النار · ان السيف لا يمحو النفاق» (٣) ·

(١٥) وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« اني لا اتخوف على امتي مؤمنا ولا مشركا ، فأما المؤمن فيحجزه ايمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن اتخوف عليكم منافقا عالم اللسان يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون»** (٤) ·

---

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه والبيهقي · الترغيب والترهيب ج ٢ : ١٠٥
(٢) رواه مسلم وابو داود ، والنسائي : جهاد : ٢ ، وأحمد مسند : ج ٢ : ٣٧٤
(٣) رواه أحمد باسناد جيد والطبري وابن حبان في صحيحه ، واللفظ له وللبيهقي الترغيب والترهيب ج ٢ : ٣١٦ ـ ٣١٧
(٤) رواه الطبراني في الصغير والاوسط من رواية الحارث وهو الاعور وقد وقفه ابن حبان وغيره : الترغيب والترهيب ج ١ : ١٢٧

(١٦)عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **«أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان»** (١)

(١٧) وعن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : **«ثلاث لا يستخف بهم الا منافق : ذو الشيبة في الاسلام ، وذو العلم وامام مقسط »** (٢)٠

(١٨) أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم : **«آية الايمان حب** الانصار ، وآية النفاق بغض الانصار » (٣) ٠

ومن حديث البراء قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : **«الانصار لا يحبهم الا مؤمن ولا يبغضهم الا منافق ، فمن احبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله»**(٤) ٠

(١٩) وفي مراسيل جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم : **«لا** تقوم الساعة حتى يسود كل أمة منافقوها»(٥) ٠

(٢٠) وفي صحيح مسلم من حديث ابن عمر عن النبي صلىالله عليه وسلم : **«مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير الى هذه مرة والى هذه أخرى»**(٦) ٠

(٢١) قتادة قال : وذكر لنا نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يضرب مثلا للمؤمن وللمنافق وللكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا الى نهر فوقع المؤمن فقطع ، ثم وقع المنافق حتى اذا كاد يصل الى المؤمن ناداه الكافر أن هلم الي

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والبزار وراوته محتج بهم في الصحيح ، ورواه إحمد من حديث عمر بن الخطاب ٠ الترغيب والترهيب ج ١ : ١٢٧ ـ ١٢٨

(٢) الترَغيب والترهيب ج ١ : ١١٥ ، ومسند الربيع بن حبيب ج ٤ : ١٤ حديث (٩٢٧)

(٣) اخرجه البخاري ٢ كتاب الايمان ١٠ باب علامة الايمان حب الانصار٠

(٤) البخاري في كتاب مناقب الانصار باب حب الانصار ٠

(٥) مسند الربيع بن حبيب ج ٤ : ١٤ حديث ٩٢٦ ٠

(٦) مسلم : منافقين : ١٦ ، النسائي : ايمان : ٣١ ، الدارمي : مقدمة : ١٣ ، احمد بن حنبل : مسند : ٢ : ٣٢ ، ٦٨ ، ٨٢ ، ١٤٢ وانظر طرقه ايضا في ابن كثير : تفسير ج ١ : ٥٦٨ ـ ٥٦٩

فاني أخشى عليك · وناداه المؤمن ان هلم الي فان عندي وعندي ، يحصي له ما عنده · فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه الماء فغرقه · وان المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك(١)

ومن الاثار الواردة في هذا الباب :

١ ـ جابر بن زيد ان رجلا قال لحذيفة : يا أبا عبدالله ، ما النفاق ؟ فقال : ان تتكلم بالاسلام ولا تعمل به(٢) ·

وقد جاء في البخاري : سئل حذيفة بن اليمان عن المنافق فقال : الذي يصف الاسلام ولا يعمل به ، وهو اليوم شر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لانهم كانوا يكتمونه وهم اليوم يظهرونه(٣) ·

٢ ـ جابر بن زيد ان رجلا قال لحذيفة : النفاق اليوم اكثر ام اذ كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : سبحان الله ! هو اليوم أكثر · هو اليوم اشد(٤) ·

٣ ـ وقال الحسن بن أبي الحسن البصري : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل · فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع الى يوم القيامة (٥) ·

٤ ـ وقيل لجابر بن زيد : أتخاف النفاق ؟ فقال : وكيف لا أخافه وقد خافه عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٦) ·

وذلك ان حذيفة بن اليمان قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصادف جنازة فلم يحضرها فقال عمر : ياحذيفة يموت رجل من المسلمين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولا تشهد جنازته؟ فقال حذيفة :

---

(١) ابن كثير : التفسير ج ١ : ٥٦٩
(٢) مسند الربيع بن حبيب ٤ : ١٥ حديث (٩٣١)
(٣) البخاري : فتن : ٢١
(٤) مسند الربيع بن حبيب ٤ : ١٥ حديث (٩٣٢)
(٥) القرطبي : تفسير : ٨ : ٢١٤
(٦) مسند الربيع بن حبيب ج ٤ : ١٥

يا أمير المؤمنين ، أما علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسر الي سرا ؟ فقال عمر : أنشدك الله ، أمنهم كان ؟ قال : اللهم نعم · فقـــال : انشدك الله ، أمنهم أنا ؟ فقال لا والله يا أمير المؤمنين ولا اؤمن بها أحـــدا ابدا ····· (١) فذلك خوف عمر رضي الله عنه من النفاق اذ لم يطمئن حتى استحلف حذيفة ليخبره ان كان منهم ·

٥ ـ كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «**مثل المؤمـــن كالخامة من الزرع تفيئها الريح مرة ، وتعدلها مرة · ومثل المنافق كالأَرْزَة ، لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة(٢)** ·

---

(١) المصدر السابق ج ٤ : ١٤ حديث (٩٢٩)

(٢) اخرجه الشيخان · اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ج ٣ : ٢٨٣

الفصل السابع

أَحكَامُ المنَافِقِينْ

أحكام المنافقين

سنحاول في هذا الفصل التعرف على التدابير التي شرعها الاسلام لمعالجة ظاهرة النفاق ، كيف نظر اليها ، وكيف وجه أتباعه للسلوك تجاه هذه الجماعة ؟

لقد تبين لنا مما تقدم ان جماعة المنافقينكانت في حقيقتها تيارا مثبطا يعمل من الداخل في دأب متصل لتحطيم معنويات المسلمين وللاجهاز بشتى الوسائل على بناء الاسلام في مراحل بنائه الاولى ابتداء من الهجرة ، الى ان قضى الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالفتح والنصر ، ولدينه بالظهور.

لقد وصف أحد الكتاب الغربيين دور المنافقين بأنه دور «المعارضة المسلمة»(١) "Muslim opposition" . واذا سلمنا مع الكاتب اعتبار دورهم الذي استعرضناه فيما سبق في ثنايا هذا البحث دور معارضة بمعناها السياسي المعاصر هذا غير صحيح ايضا ، اذا قبلنا ذلك ، فاننا لن نقبل لها الوصف الذي اتخذه لها من انها «معارضة مسلمة» . فقد رأينا ان اعتناقهم للاسلام لم يكن الا (تعوذا من السيف) . ورأينا صورا من استهزائهم بآيات الله ، ومعصيتهم للرسول وعدم الاستجابة له ، ورأينا ألوانا من خلفهم للعهد وسوء ظنهم بالله ، ورأينا تخاذلهم عن الجهاد وموالاتهم لاعداء الاسلام من المشركين واليهود . فصفة الاسلام لم تكن لتصدق عليهم بحال .... ثم ان الامر يختلف اختلافا كاملا عندما يكون معارضة لرسول مرسل من عند الله ، يبلغ الوحي عن الله ، ويعمل لاعلاء كلمة الله . فعندما تكون «المعارضة» حربا لهذا الرسول ولدينه فمن الخطأ ان نصفها بوصف «المعارضة الاسلامية» . وقد كان يمكن اعتبارها كذلك لو انحصرت في نقاش موقف سياسي معين موقوت . او تحديد موقع غزوة او موعدها ، او قضية من القضايا التي تهم شئون المسلمين الدنيوية . ولكننا رأينا فيما تقدم ان معارضتهم تلك ـ وبشهادة الوحي ـ كانت للعقيدة نفسها ، وللدين نفسه ، وللنبي نفسه ، وقد كانت تتمثل في صورة عمل متصل لحربه بكل الوسائل التي يمكنهم منها وضعهم الخاص داخل المجتمع الاسلامي .

---

(١) Watt, Montgomery. W. Mohammad at Medina., (Oxford, 1956), p. 180.

وهكذا ، فنحن نجد في تسمية حركة المنافقين «بالمعارضة الاسلامية» تجاهلا حقيقيا لحقيقة النفاق ودور أصحابه ، ولعل ذلك راجع قبل كل شيء الى عدم تفهم الدارس الغربي المسيحي لحقيقة الاسلام نفسه ، ومعنى النبوة والرسالة والوحي ، وهذا التفهم كان ضروريا وهو أول مقتضيات المعالجة الموضوعية لدراسة الاسلام وما يتصل به لمعرفة تأثيره ، وأبعاد ذلك التأثير في أصحابه ومن حوله ·· ودراسة تفتقد هذا الركن العلمي الهام ، لا تستحق المناقشة أساسا ، وما كنا لنحفل بمناقشة هذه النقطة التي طرحها هـذا الدارس لولا ان اختيار لفظه «المعارضة» قد تجعل بعض المتعجلين يخدع ببريق هذا الاصطلاح السياسي اللامع · فأحببت ان انبه القارىء المسلم الى ان الامر في هذا أعمق من لعب عابر بالالفاظ دون مراعاة لمدلولاتها العميقة الدقيقة ·

وموضوع المعارضة في الاسلام موضوع طريف يحتاج ان يلقى عليـه الضوء في دراسة خاصة مفصلة ··· وقد سجلت السيرة النبوية الكثير من صورها في أكثر من مناسبة ومجال · ويستطيع الدارس ان يلمح نموذجا لها في موقف عمر بن الخطاب الحائر الملح في صلح الحديبية ، وما كان من تباطؤ المسلمين حين أمرهم الرسول عليه السلام بنحر الهدى وبالحلق بعد امضاء الصلح مع المشركين في الحديبية · ونستطيع ان نلمح صورة اخرى للمعارضة في اعتراض السعدين ، سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، على ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يمضيه من موادعة غطفان في غزوة الخندق على ثلث ثمار المدينة · فقالا له : يا رسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ، او شيء امرك الله به فنسمع له ونطيع ، او أمر تصنعه لنا ؟ وعندما قال عليه السلام : **بل أمر اصنعه لكم ، والله ما اصنعه الا اني قد رأيت العرب قد رمتكم عـن قوس واحد** · قال سعد بن معاذ : يارسول الله ، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط ان ينالوا منا تمرة الا شراء او قرى فحين أكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم اموالنا ؟ والله لا نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننـا وبينهم » · وكان ان أمضى الرسول عليه السلام ما ارتضاه السعدان (١) ·

فهذه ـ في لمحة عابرة ـ حدود «المعارضة المسلمة» : هي ليست معارضة لشيء امر به الله سبحانه ، فذلك الامر لا يلقى الا السمع والطاعة · وليست

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية تحقيق السقا واخرون : ج ٣ : ٢٣٤ ·

معارضة لشيء يحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذلك يحـنعونه ارضاء له وهو من هو من ربه · ولكنها معارضة في حدود الاجتهاد لما يصلح لدنيـــا المسلمين وشئونهم التي لم يفصل فيها حكم من الله او من رسوله ، فلهم عندئذ ان يقولوا ويعارضوا ويشيروا ·· فللمعارضة في الاسلام حدودها التي لا تتطاول على مقام الوحي والنبوة اما حين يكون الامر استخفافا بالوحـــي ، وتطاولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حرمة النبوة ـ فهي عندئذ خروج عن العقيدة وقد كانت «معارضة» المنافقين من جنس هذه الاخيرة بـــلا شك · ولذلك فان علاجها ودراستها لا ينبغي ان تتناسى هذه الحقيقة لتعود بهم الى حضيرة الاسلام من الباب الذي خرجوا منه ·

ونمضي الان لنواصل الحديث حتى نتعرف على أسلوب الاسلام فـــي مواجهة هذه الظاهرة ـ ظاهرة النفاق والمنافقين ـ في اطار حقيقتها وحجمها اللذين بيناهما فيما مضى في هذا البحث ·

عالج الاسلام مشكلة النفاق في اطارين اثنين يخدم كلاهما الاخر ويكمله : الاطار النظري الذي حدد معالمه القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليـه وسلم · ثم الاطار العملي الذي يحقق الصورة العملية لتوجيهـــــات القرآن وارشـــاداتـــه ·

في الاطار الاول : كشف القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم مواصفات المشكلة وأعراضها ، وخدم هذا العمل خطين اثنين : كشف اولا دخيلة هؤلاء الناس فازاح عنهم قناع الادعاء الزائف الذي يتسترون بـــه بتظاهرهم بالاسلام ـ بينما يحاربون الاسلام وأهله ويكيدون لهم ·

وبصر ثانيا أهل الاسلام الصادقين حتى لا يقعوا في محاذير تلـــك الاوصاف القبيحة · فكان هذا العمل بمثابة التشخيص العلمي للمرض الخطير الخبيث ليتعرف عليه صاحبه في نفسه فيلتفت الى علاجه ان كانت له في نفسه حاجة · وليبصره فيه غيره من الاصحاء فيحذر من ان تناله العدوى ، او ان يأتي هو ما يجر عليه أعراض المرض ·

وقد تقدم الكلام في اوصاف المنافقين بما لا مزيد عليه · وذلك جانب مـن العلاج النظري للمشكلة · ولما كانت سرائر المنافقين استعصت عن ان تنالهـا

أحكام الدنيا التي تهتم بالظاهر وتحسمه فقد حرص القرآن الكريم على تذكير المنافقين بأنهم يتعاملون مع عالم السر والنجوى ، وانهم ان أفلتوا من عقوبة المسلمين في هذه الدنيا ، فأمامهم عقبة لا يجتازها الا المؤمن الصادق مع ربه ونفسه · وزخر القرآن الكريم بالآيات المتعددة التي أعلنت بالوعيد الشديد للمنافقين ، مصورة لهم حقيقة مصيرهم الذي ينتظرهم ان هم مضوا في غيهم ومردوا على نفاقهم ·

قال سبحانه وتعالى : «··· إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا» (١)

فالمنافق في الدرك الاسفل ، وهي «الهاوية» لغلظ كفره وكثرة غوائله وتمكنه من أذى المؤمنين · وأعلى الدركات جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ، قال ابن مسعود : توابيت من حديد مقفلة في النار تقفل عليهم(٢) ·

وقال تعالى : «··· وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»(٣) ثم قال : «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ، ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ » ·(٤)

وقال تعالى في سورة الأحزاب : «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» ··(٥)

وقال في سورة النساء : «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا»(٦) ثم قال : «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا » ·(٧)

---

(١) سورة النساء : ١٤٥ ·
(٢) القرطبي : تفسير : ج ٥ : ٤٢٥ ·
(٣) سورة التوبة : ٦١
(٤) سورة التوبة : ٦٣
(٥) سورة الاحزاب : ٥٧
(٦) سورة النساء : ١٣٨
(٧) سورة النساء : ١٤٠

وقال سبحانه : «وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ» (١) ٠

وقال سبحانه : «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ» (٢) ٠

وقال تعالى : «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٣) ٠

وقال : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ٠ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ» (٤) وقال أيضا : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (٥) ٠

ومن صفة حالهم في الاخرة قوله سبحانه وتعالى : «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ٠ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ٠ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ٠ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (٦) ٠

اما عن المواقف العملية التي واجه بها المسلمون موجة النفاق ، فمما ارشد اليه القران في اول الامر البراءة منهم ومهاجرتهم ومقاطعتهم ٠ جاء ذلك في قوله تعالى : «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ٠ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ٠٠ » (٧) ٠

---

(١) سورة التوبة : ١٠١
(٢) سورة التوبة : ٦٨
(٣) سورة التوبة : ٩٠
(٤) سورة البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦
(٥) سورة التوبة : ٧٣
(٦) سورة الحديد : ١٣ ـ ١٥
(٧) سورة النساء : ٨٨ ـ ٨٩

وقد اختلف أهل التفسير في هذه الفئة المنافقين الذين اختلف المسلمون في أمرهم ـ على ثلاثة أقوال :

الاول : ما رواه مسلم عن زيد بن ثابت ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج الى أحد فرجع ناس ممن كان معه ، فكان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين ، فقال بعضهم : نقتلهم ، وقال بعضهم : لا · فنزلت «**فما لكم في المنافقين فئتين**» · والمعنى بالمنافقين هنا عبدالله بن أبي واصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ·

القول الثاني : عن ابن عباس : هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة · قال الضحاك : وقالوا : ان ظهر محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفنا ، وان ظهر قومنا فهو أحب الينا · فصار المسلمون فيهم فئتين : قوم يتولونهم وقوم يتبرأون منهم ، فقال الله تعالى «**فما لكم في المنافقين فئتين**» ·

والثالث : ذكر ابو سلمة بن عبدالرحمن عن أبيه انها نزلت في قوم جاءوا الى المدينة وأظهروا الاسلام ، فأصابهم وباء المدينة وحماها فأركسوا فخرجوا من المدينة ···

قال القرطبي معقبا على هذه الاقوال : وهذان القولان يعضدهما سياق اخر الاية من قوله تعالى «**حَتى يهاجروا**» · والاول أصح نقلا ، وهو اختيار البخاري ومسلم والترمذي(١) ·

ومن التوجيهات القرآنية التي تدل على موقف محدد ما امر به الله سبحانه وتعالى المسلمين من مقاطعة مجالس المنافقين التي يعلنون فيها كفرهم واستهزاءهم بآيات الله سبحانه وتعالى ، حتى يصون آذان المسلمين ومشاعرهم عن ذلك الاذى الخبيث ، وليضيق على المنافقين مجال كيدهم واساءتهم فيقتصر كيدهم وشرهم ذاك على أنفسهم ويفقد معناه الذي قصدوه من التأثير على المسلمين وبلبلة أفكارهم · جاء في هذا الشأن قوله تعالى : «**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**» (٢) ·

---

(١) القرطبي ، تفسير : ٥ : ٣٠٦ ـ ٣٠٧ · (٢) سورة النساء : ١٤٠ ·

قال القرطبي : «فدل بهذا على اجتناب أصحاب المعاصي اذا ظهر منهم منكر لان من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم والرضى بالكفر كفر وينبغي ان ينكر عليهم اذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها» قال : «**واذا ثبت تجنب أصحاب المعاصي كما بينا فتجنب أهل البدع والاهواء أولى**» · قال : والاية محكمة عند عامة المفسرين · وروى جويبر عن الضحاك قال : دخل في هذه الاية كل محدث في الدين مبتدع الى يوم القيامة (١) ·

ونقل الجصاص في أحكامه قال : «وقال قائلون : انما نهى الله عن مجالسة هؤلاء المنافقين ومن يظهر الكفر والاستهزاء بايات الله ، لان في مجالستهم تأنيسا لهم ومشاركتهم فيما يجري في مجلسهم (٢) ·

فهذا حكم الله سبحانه وتعالى في مواجهة هذا الاسلوب الخبيث ، اسلوب الاستهزاء بايات الله سبحانه وتعالى ، والكفر بها ·

وهذا أمر قد شاع بين الناس اليوم وكثر الخوض فيه ، بعضهم يفعله عن خبث وكيد وسوء نية ، وبعض يلتمسون به الظرف والفكاهة ، «يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، فواجب المسلم امتثالا لحكم الله سبحانه ان ينهى عن مثل هذا المنكر الشنيع ، اما اذا عجز عن النهي فلا أقل من ان يهجر أمثال تلك المجالس ، وان يقاطع أمثال تلك الاحاديث ـ وان يلتزم أوامر الله فيغلبها على ما يحب البعض ان يحمله على اداب المجاملة واصول الحديث المتحضر !!وأمر الله سبحانه وتعالى أولى ان يتبع : «فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، انكم اذا مثلهم » (٣) · وقال تعالى : « **وَإِذَا رَأَيْتَ الذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ** » (٤) ·

فهذا الذي أمر الله به من ترك مجالس المنافقين عند خوضهم في ايات الله واستهزائهم بها داخل في اطار الامر الاول بمهاجرتهم والبراءة منهم ، وهو مظهر من مظاهر تلك البراءة وما تقتضيه من مقاطعتهم وبغضهم والاكفهرار في وجوههم ·

---

(١) القرطبي ، تفسير : ٥ : ٤١٨ ·
(٢) الجصاص : احكام القرآن : ٢ : ٢٨٩
(٣) سورة النساء : ١٤٠
(٤) سورة الانعام : ٦٨

الى جانب ما تقدم ، فقد امر الله نبيه عليه السلام بموعظة المنافقين وبالاعراض عنهم . قال تعالى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا»(١) وقال : «وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ، فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائفةٌ منهمْ غيرَ الذي تَقُولُ ، واللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ . فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله وكفى بالله وكيلا » (٢) وقال سبحانه وتعالى :

« سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .(٣) وأمر الله نبيه عليه السلام بعدم التعرض لهم بالاذى ، وان يتوكل عليه سبحانه ، ففي ذلك ما يصرف عنه شرورهم وكيدهم ، قال سبحانه وتعالى : « وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ والمنافقينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا » .(٤)

كل هذا مع افساح مجال التوبة أمام المنافقين ، ودعوتهم الى الرجوع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستغفر الله لهم ، وعدم ايئاسهم من رحمة الله سبحانه ان هم تابوا وأصلحوا .

قال تعالى : «يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أغناهمُ اللهُ ورسولُه مِنْ فضلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ . وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عذابًا أليمًا فِي الدنيَا والآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .(٥)

وقال سبحانه وتعالى : «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الاسفل مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بالله وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » .(٦)

قال القرطبي : «ومن شرط التائب من النفاق ان يصلح في قوله وفعله ويجعل الله ملجأ ومعاذا كما نصت عليه هذه الاية ، والا فليس بتائب » (٧)

---

(١) سورة النساء : ٦٤
(٢) سورة النساء : ٨٢
(٣) سورة التوبة : ٩٩
(٤) سورة الاحزاب : ٤٨
(٥) سورة التوبة : ٧٤
(٦) سورة النساء : ١٤٥ ـ ١٤٧
(٧) القرطبي : التفسير : ٥ : ٤٢٦

وروى البخاري عن الاسود قال : كنا في حلقة عبد الله فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم ثم قال : لقد نزل النفاق على قوم خير منكم · قال الاسود : سبحان الله ! ان الله تعالى يقول : «**ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار**» فتبسم عبد الله ، وجلس حذيفة في ناحيةالمسجد ·

وعن جابر بن زيد عن حذيفة قال : لمنافقوكم اليوم أشد من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم · فقيل له : لم ذلك يا أبا عبدالله ؟ قال : ان اولئك كان ذنبهم يومئذ مغفورا وحسناتهم مقبولة»(١) ·

ومع تتابع الاحداث في السيرة ، وتمادي أهل النفاق في نفاقهم وثباتهم عليه ، تدرج الامر معهم الى اتخاذ تدابير عملية أدت الى حرمان من تخلف منهم عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك وعدم المشاركة في الجهاد من الخروج الى الجهاد مرة أخرى ، السبب قعودهم وتخلفهم · وذلك قول الله تعال : «**فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ**» ·(٢)

وذلك أن المنافقين أرادوا أن يخضعوا معنى الجهاد لاعلاء كلمة الله بمفهوم الغارة قصد المغنم السهل اليسير ، فكانوا اذا سهل الامر وظهر لهم فيه امكان النصر وقرب الموضع نشطوا له ، وان كان غير ذلك تخلفوا وقعدوا · فجاء هذا الحكم ليحسم هذا الخلط في تصورهم لمعنى الجهاد الذي شرعه الله أولا وقبل كل شيء لإعلاء كلمة الله وتمحيص أهل الايمان ، وليس للمغنم الدنيوي القريب

وصحب هذا حرمانهم من استغفار الرسول لهم وايئاسهم من ذلك : قال سبحانه وتعالى : «**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ...**» (٣) ·

وأمر الله نبيه بعدم الصلاة على موتاهم أو الوقوف على قبورهم والدعاء لهم وذلك في قوله تعالى : « **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ...** » (٤) ·

---

(١) مسند الربيع بن حبيب ج ٤ : ١٥ حديث (٩٣٣) ·
(٢) سورةالتوبة : ٨٣ ·
(٣) سورة التوبة : ٨٠
(٤) سورة التوبة : ٨٤ ·

وانتهى الامر أخيرا الى التهديد بالنفي والقتل ان هم تمادوا على ضلالهم وفسادهم ٠٠ وذلك ما نص عليه قوله سبحانه وتعالى : «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ٠ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا » (١) ٠

على أن الامر هنا لم يتجاوز التهديد ، ولم يتخذ الرسول عليه السلام معهم مواقف تحمل طابع العنف والشدة ٠ وما جاء في القرآن من قوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » (٢) ٠ فجهاد المنافقين ، كما يقول ابن القيم ،« انما هو تبليغ الحجة ، والا فهم تحت قهر أهل الاسلام»(٢)٠ وقد لخص ابن القيم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في المنافقين في قوله : «وأما سيرته في المنافقين فانه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم الى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ الى نفوسهم ، ونهى أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ٠ وأخيرا أنه ان استغفر لهم فلن يغفر الله لهم » (٣) ٠

فسيرة رسول الله عليه السلام في المنافقين كانت على هذا النهج الذي ذكره ابن القيم ٠ وعلى كثرة المصاعب والمتاعب التي سببها المنافقون في مسيرة الدولة الاسلامية ، وعلى كثرة شغبهم وما نال المسلمين من كيدهم وسوء فعلهم ، فان الرسول عليه السلام قد سلك معهم مسلك المدارة والملاينة ٠ وأعنف مظاهر الضرب على أيديهم ما ورد من أمره عليه السلام من تحريق مسجد الضرار(٤) ، واحراق بيت سويلم اليهودي الذي كان مقر لقاءاتهم مع نفر من اليهود(٥) ، واخراج عدد من المنافقين من مسجده صلى الله عليه وسلم (٦) ٠

وقد تكررت من المنافقين كثير من المواقف التي حركت عليهم غضب المسلمين ، ورغبوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلبوا اليه ان يأذن لهم في قتلهم ، فلم يسمح به ، ولم يأذن لهم فيه وقد ناقش العلماء مسألة امساك النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بنفاقهم ، واورد القرطبي أربعة أقوال في ذلك نورد نصها هنا (٧) ٠

---

(١) سورة الاحزاب : ٦٠ ـ ٦١
(٢) ابن القيم : زاد المعاد : ٢ : ٤٠
(٣) المصدر السابق : ٢ ـ ٨٢
(٤) انظر ما سبق .
(٥) انظر ما سبق.
(٦) انظر ما سبق .
(٧) القرطبي : التفسير : ج ١ : ١٩٨ ـ ١٩٩

« **القول الاول** : قال بعض العلماء : انما لم يقتلهم لانه لم يعلم حالهم احد سواه · وقد اتفق العلماء على بكرة أبيهم على ان القاضي لا يقتل بعلمه وان اختلفوا في سائر الاحكام · قال ابن العربي : وهذا منتقض ، فقد قتل بالمجدر ابنزياد الحارث بن سويد بن الصامت لان المجدر قتل أباه سويدا يوم بعاث فأسلم الحارث واغفله يوم أحد فقتله ، فأخبر به جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقتله به لان قتله كان غيلة · وقتل الغيلة حد من حدود الله ·

قلت : وهذه غفلة من هذا الامام لانه ان ثبت الاجماع المذكور فليس بمنتقض بما ذكر ، لان الاجماع لا ينعقد ولا يثبت الا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وانقطاع الوحي ، وعلى هذا فتكون تلك قضية في عين بوحي ، فلا يحتج بها ، او منسوخة بالاجماع والله أعلم ·

القول الثاني : «قال أصحاب الشافعي : انما لم يقتلهم لان الزنديق وهو الذي يسر الكفر ويظهر الايمان يستتاب ولا يقتل · قال ابن العربي : وهذا وهم، فان النبي صلى الله عليه وسلم لميستتبهم ولا نقل ذلك أحد · ولا يقول أحد ان استتابه الزنديق واجبه ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم معرضا عنهم مع علمه بهم · فهذا المتأخر من اصحاب الشافعي الذي قال : ان استتابة الزنديق جائزة قال قولا لم يصح لاحد ·

«**القول الثالث** : انما لم يقتلهم مصلحة لتأليف القلوب عليه ، لئلا تنفر عنه ، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى بقوله لعمر : «معاذ الله ان يتحدث الناس أني أقتل أصحابي » أخرجه البخاري ومسلم · وقد كان يعطي للمؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم تألفا · وهذا هو قول علمائنا وغيرهم · قال ابن عطية : وهي طريقة أصحاب مالك رحمه الله في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين · نص على هذا محمد بن الجهم والقاضي اسماعيل والابهري وابن الماجشون واحتج بقوله تعالى : «**لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض**» الى قوله : «**وقتلوا تقتيلا**»قال قتادة : معناه اذا هم أعلنوا النفاق · قال مالك رحمه الله : النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم،فيقتل الزنديق اذا شهد عليه بها دون استتابة وهو أحد قولي الشافعي · قال مالك : وانما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبين لامته ان الحاكم لا يحكم بعلمه اذ لم يشهد على المنافقين ·

قال القاضي اسماعيل : لم يشهد على عبدالله بن أبي الا زيد بن ارقم وحـــده، ولا على الجلاس بن سويد الا عمير بن سعد ربيبه ، ولو شهد على احد منهـــم رجلان بكفره ونفاقه لقتل · وقال الشافعي رحمه الله محتجا للقول الاخر : السنة فيمن شهد عليه بالزندقة فجحد وأعلن بالايمان وتبرأ من كل دين سوى الاسلام ان ذلك يمنع من اراقة دمه · وبه قال اصحاب الرأي واحمد والطبري وغيرهم · قال الشافعي وأصحابه : وانما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتـل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الاسلام مع العلم بنفاقهم لان ما يظهرونه يجب ما قبله · وقال الطبري : جعل الله تعالى الاحكام بين عباده على الظاهر وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه ، فليس لاحد ان يحكم بخلاف مـــا ظهر لانه حكم الظنون ، ولو كان ذلك لاحد كان اولى الناس به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما اظهروا ووكل سرائرهم الى الله · وقد كذب الله ظاهرهم بقوله : **«والله يشهد ان المنافقين لكاذبون»** · قال ابن عطية : ينفصل المالكيون عما لزموه من هذه الاية بأنها لم تعين اشخاصهم فيها ، وانما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق ، وبقي لكل واحد منهم ان يقول : لم أرد بها وما انا الا مؤمن ، ولو عَيَّنَ احدا لما جَبَّ كذبه شيئا · قلت هذا الانفصال فيه نظر : فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم او كثيـرا منهم باسمائهم واعيانهم باعلام الله تعالى اياه ، وكان حذيفة يعلم ذلك بإخبار النبي عليه السلام اياه حتى كان عمر رضي الله عنه يقول له : ياحذيفة هـــل انـــا منهم ؟ فيقول : لا ·

القول الرابع : وهو ان الله تعالى كان قد حفظ أصحاب نبيه عليه السـلام بكونه ثبتهم ان يفسدهم المنافقون او يفسدوا دينهم ، فلم يكن في تبقيتهم ضرر · وليس كذلك اليوم ، لاننا لا نأمن من الزنادقة ان يفسدوا عامتنا وجهالنـــا» · انتهى كلام القرطبي ·

وذلك الخلاف الذي رأيناه في توجيه موقف الرسول عليه السلام مـــن المنافقين وتفسير عدم قتله لهم ، انعكس كذلك في موقف الامة في فهمها لظاهرة النفاق وتحديد اطارها · ومدار هذا الخلاف على ثلاثة أقوال : (١)

الاول : وهو قول جل الامة : ان المنافقين نافقوا من جهة الاعتقاد ، لانهم اعتقدوا خلاف ما اظهروا ، ولم يقولوا بالنفاق في الافعال · وهو قول السنية والمعتزلة والروافض من الشيعة ··

---

(١) الوارجلاني : الدليل والبرهان : مخطوطة المتحف البريطاني : (٤٩ وجه)

الثاني ان النفاق في الافعال دون الاعتقادات · وهو قول الاباضية ·

الثالث : ان المنافقين هم الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في فعل الكبير ·

ولا نريد ان نطيل البحث باستعراض آراء هذه الافراق كلها واستعراض حججهم ، وقد نعود لبحث هذا الموضوع في فصل مستقل في غير هذا البحث ، ولكننا نورد هنا فصلا عقده الشيخ ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني في هذا الموضوع الذي نحن بصدده لخص فيه الخلاف في هذه المسألة وناقشه نقاشا مستفيضا ·

قال الوارجلاني رحمه الله عند كلامه على النفاق في كتابه النفيس : «العدل والانصاف في اصول الفقه والاختلاف»(١) : «أصل النفاق في كلام العرب مأخوذ من نافقاء اليربوع · وهو اسم شرعي ، وذلك ان اليربوع يتخذ أبوابا الى جحره منها القاصعاء والرهطاء والداماء والنافقاء(٢) فاستعمل النافقاء بابا مستخفيا يخرج منه عند الضرورة اذا خاف فأخفاه عن العيون ·

وهو اسم شرعي فسره أهل العلم فقالوا انه اختلاف السريرة والعلانية، واختلاف القول والعمل ، واختلاف المدخل والمخرج · وهذه المقالة تروى عن الحسن البصري ومعناها عن حذيفة بن اليماني ، وهو قول جل الصحابة ، وقد ذكر الله عز وجل المنافقين في آي كثيرة من كتابه ، فاختلفت الناس فيهم فقال بعضهم مشركون خالف قولهم اعتقادهم ، وقال بعضهم : خالف فعلهم قولهم · قال الله تعالى : «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ»(٣) · وقال « يَوْمَ يَقُولُ المنافقونَ والمنافقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » (٤) وقال : «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ»(٥)

---

(١) الكتاب مخطوط ، وقد وفقني الله سبحانه الى تحقيقه وتهيئته للطبع ، والنص هنا منقول من مخطوطة نسختي المحققة ورقات = (٣٥٠ ظهر ـ ٣٥٥و) ·

(٢) هذه كلها اسماء لاجحرة اليربوع ، فالرهطاء والرهطة هي التي يخرج منها التراب والقاصعاء جحر له يدخله ، والدَّامَّاء جحر اليربوع حال تغطيته وتسويته وتراب يخرجه فيسوي به بابه،ودَمَّ اليربوعُ جحرَه : غطاه وسواه · قاموس : (قصع)، (رهط) ، (دم)

(٣) سورة النساء : ٨٨

(٤) سورة الحديد : ١٣

(٥) سورة المنافقون : ١ ·

وقال : «**ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا**» (١) والاي التي في سورة براءة جلها انما نزلت في المنافقين والمنافقات أجمعين · وانا ذكرنا مبدأ امرهم ومنهم تتعرف الحقيقة فيهم ، وذلك ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيمن خلفوا بمكة ممن آمن وصدق برسول الله عليه السلام فقال بعضهم : (هم) على حقيقة ما انتم عليه ، وهم اخواننا ، وانما ثقل عليهم امر الهجرة والخروج من الوطن فهم مسلمون مؤمنون · وقال بعضهم : بل هم مشركون لتخلفهم عن الهجرة ولقعودهم بين ظهراني قوم مشركين · فانزل الله تعالى معاتبة المؤمنين في اختلافهم ، ورد على الفريقين وسماهم بخلاف ما سموهم به اذ سماهم البعض «مؤمنين» والبعض «مشركين» ، وقال عز وجل : «**فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم** ···»(٢) فاخبر أنهم ليسوا بمؤمنين» ولا «بمشركين» ولكنهم «منافقون» فأخبر انه أركسهم ردا على من سماهم «مؤمنين» وسماهم الله منافقين ردا على من سماهم «مشركين» ، ثم قال عتابا للمؤمنين : «اتريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضلل فلن تجد له سبيلا»» (٢) فوقع العتاب ها هنا على من سماهم «مؤمنين » ثم قال : «**ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**»(٣) وانما مودتهم ان يترك المؤمنون الهجرة كما تركوها هم فيكفروا كما كفروا · ثم قال : «**فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا** » (٤) وقد انقطعت الولاية بين المؤمنين والكفار حتى يهاجروا في سبيل الله · ثم قال : « **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا**»(٥) فصح انهم قبل التولي لم يصدر منهم فعل يكونون به منافقين الا ترك الهجرة · فان «وقع التولي وهو الارتداد كان لهم حكم اخر وهو القتل · فمن اثبت النفاق في الافعال لمخالفتها الاقوال فهو أقرب الى الحجة لانهم استدلوا بظاهر هذه الاية وقضوا بان النفاق (في الافعال) لما رأوا من ثبوتهم على المعاصي اذا خلوا كما قال الله تعالى : « **وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى**

---

(١) سورة النساء : ١٤٥
(٢) سورة النساء : ٨٨
(٣) سورة النساء : ٨٩
(٤) سورة النساء : ٨٩
(٥) سورة النساء : ٨٩

بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ»(١) واستدل الاخرون بتكذيب الله اياهم : «... قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون»(٢) فهذه الاية مشتركة بين الفريقين ، لان الفريقين قد اتفقا على المنافقين يشهدون ان محمدا رسول الله عليه السلام ، انا ننتصر لك في مغيبك ونشهد عند اليهود انك لرسول الله . فشهد الله ان محمدا رسوله وانهم كذبوا . فاختلف الفريقان : فقال من شركهم : انما وقع التكذيب على الشهادة ونحن نشهد لهم بالشهادة ، وانما وقع التكذيب ذما لهم وتوبيخا . الا ترى انه لو وقع التكذيب على قلوبهم لقال : والله يشهد انهم لكاذبون . فلما قال : «والله يشهد ان المنافقين لكاذبون» وقفت عليهم الشهادة بالكذب في شيء اخر لكسر ان . واستداوا ايضا بقول الله تعالى«وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ»(٣) الى قوله «... بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» (٤) فلما اخبر عن الوعد باللسان وعاقب وعقب بالنفاق في القلب علمنا انما سلبهم الايمان الذي يكون في القلب عقوبة لهم ، ولن يستقيم الايمان والنفاق في قلب واحد .

و (قال) الاخرون : قد يصبح النفاق في القلب ويقاوم لان هذا الايمان دخل في قلوبهم الى المؤمنين . وليس لمن اثبت لهم الشرك آية في القرآن أعظم من هذه والتي قبلها : «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» وباقي الايات عليهم لا لهم . والذين قضوا بالضمير تعسفوا ، لانهم لا يتوصلون الى الاعتقادات الا بنصوص الشارع . والذين قضوا بهذا قد ابعدوا عن أنفسهم أسباب الشر لكنهم هدموا قاعدة الخوف وسهلوا طريق الجنة . والذين قالوا انه في الافعال عظموا اسباب المخاف فهم أحزم .»

«والذي عندي ان النفاق ما قدمناه اولا انه في الافعال ، ولا يستحيل صرفه في الوجهين جميعا . وليس لنا ان نتحكم على الشارع في الاسامي .. وانما الشأن في الاحكام .

وهؤلاء الذين حكموا في الافعال على المنافق لم يختلفوا مع هؤلاء الذين اثبتوه في الاعتقادات الا في أشياء نزرة . فمن سماه مؤمنا وأجرى عليه الحدود كما أجراها عليه من سماه منافقا ، وقد اتفقا ولم يتفقا .»

---

(١) سورة التوبة : ١٢٧
(٢) سورة المنافقون : ١
(٣) سورة التوبة : ٧٥
(٤) سورة التوبة : ٧٧

«فاما الذي قال انه مؤمن من أهل الجنة ، والقائل بأنه منافق من أهل النار، ها هنا تقع الديانات ويقع التفاوت في الاعتقادات · وقد قال عليه السلام : (علامة المنافق اذا حدث كذب واذا اؤتمن خان واذا وعد أخلف) (١) ·والحديث الصحيح الذي اخرجه الصحاح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اربع من كن فيه او واحدة فهو منافق حقا وان صلى وصام وزعم انه مسلم · من اذا حدث كذب واذا ائتمن خان واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر) (٢) · فهذا النص في موضع النزاع وروي عن حذيفة بن اليماني أنه قال : انما كان النفاق على عهد رسول الله الله صلى الله عليه وسلم واما اليوم فقد كفروا كفرا مبينا فهذا الفصل بين المذهبين حيث اثبت حذيفة الكفر في الافعال فلبقولوا في النفاق ما شاءوا · وانما عزاهم الى الكفر من أجل تبجحهم به والمجاهرة به ، وانما اختلفوا في الكبير هل هو نفاق ظاهر او باطن ام باطن لا غير ؟ وغرضنا ان يكون الكبير كفرا ·

فمن منعه ان يكون نفاقا لاهل الظهور فقد أتى بأكثر من غرضنا ومرادنا كما قال حذيفة · وانما هربوا ان يجعلوا الكبير كفرا ونفاقا جنوحا وميلا الى الراحة · فمن قضى بالوعيد نهب الطمع في البيد » انتهى كلام الوارجلاني ·

وخلاصة البحث في هذا الموضوع ان الخلاف بين الامة انما جاء في التسمية وحسب ، فمن حكم بالنفاق في العقيدة دون العمل قضى ان أحكام الضمائر غيب لا يطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فان من قصر النفاق على الاعتقاد قصره في الزمن على عهد النبوة والوحي ، وانقطع عنده أمر النفاق مع انقطاع الوحي اذ لا سبيل الى معرفتهم · وهكذا منع هذا الفريق اسم النفاق عن اهل التوحيد الذين يظهرون الاسلام وان ظهرت منهم علامات النفاق وما ظهر منهم من أفعال الكبائر حملوها على الفسوق والعصيان ومنعوا عنهم اسم النفاق ومن حكم بالنفاق في العمل فقد بناه على ان مواقعة الكبائر لا تكون الا مع فساد العقيدة ووهنها ،وحملوا الكبائر كلها على النفاق ، ولم يتحرجوا في تسمية من ظهرت عليه علامات النفاق بهذا الاسم · قال القرطبي :

---

(١) انظر ما سبق.

(٢) انظر ما سبق .

«ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم ان هذه الخلال الذميمة منافق من أتصف بها الى يوم القيامة » (١) ٠

والخلاف ـ كما ترى ـ حول التسمية لهذا الصنف من المسلمين الذين لم يلتزموا اوامر دينهم ومتطلبات عقيدتهم وخالفوها الى المعاصي والكبائر ، ولا أثر لهذا الخلاف في تسميتهم على أحكامهم الدنيوية ، فان ذلك لا يرفع عنهم حدا من حدود الله وجب عليهم ، مع اتفاق الجميع ـ من سماهم بالنفاق ومن لم يسمهم به ـ على وجوب النكير على أصحاب المعاصي والكبائر وهجرهم التغليظ عليهم وجهادهم ٠

★ ★ ★

(١) القرطبي : التفسير : جـ ٨ : ٢١٤ ٠

الخاتمة

وبعد ،

فلقد اهتمت هذه الفصول السابقة بدراسة ظاهرة النفاق والمنافقين في اطار الموازين الاسلامية وفي سياق تاريخي محدد بمسار البعثة النبوية منذ الهجرة حتى تحقق الفتح وظهور الاسلام · ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة أن النفاق ظاهرة بشرية عامة توجد عندما تتوفر لها الظروف التي تنشأ فيها ، بعضها ذاتي داخلي وبعضها يفرضه الواقع الخارجي ·

فما من مجتمع كبير أو صغير ، وما من حركة سياسية أو دينية الا وقد خبرت ألوانا من أخلاق النفاق ونماذج من المنافقين ، فالظاهرة في هذا الاطار ظاهرة بشرية انسانية تنشأ في اطار الدوافع الذاتية أو الخارجية التي تعمل على صنعها والتمكين لها ·

قد يعجز شخص ما عن الالتزام بمتطلبات طبقته أو أسرته أو جماعته ، ويستشعر مع ذلك ضرورة الارتباط بها فيتظاهر لها بقدر الامكان بمظاهر ذلك الالتزام · وحقيقته على غير ذلك · فهذا نوع من النفاق ·

وقد يجد شخص ما ، لسبب أو لاخر ، نفسه على رأس جماعة أو هيئة أو دولة ، تفرض تقاليدها وأعرافها انماطا من الفكر والسلوك لا يعتقده هو أو لا يستطيع الالتزام به فيتظاهر بكل ما من شأنه أن يظهره بمظهر الشخص الملتزم بالفكر والسلوك المطلوب منه ظاهرا بينما يعيش في حقيقة أمره غير ذلك ··· وهذا لون من ألوان النفاق ·

وقد يعرف عن حاكم بعينه البطش والاستبداد ،، فينشأ الناس على تمجيده وتزيين كل أعماله ، وهم يبطنون غير ذلك · وكذلك الحال في رب الاسرة الغليظ الجافي الذي يضطر أهله وأبناؤه لنفاقه باعطائه المظهر الذي يريده بينما يعيشون في حقيقة أمرهم على غير مايعطونه من مظاهرهم · وهذا لون أخر من النفاق· وهكذا وفي كل هذه الصور والمظاهر ومثيلاتها ، ينشأ النفاق في حقيقته عن

ضعف ـ اما ذاتي أو بسبب ظروف خارجية غالبة ـ يمنع صاحبه عن اعلان حقيقته ، خيرا كانت أم شرا ، فيحاول أن يكيف نفسه مع واقعه الغالب عليه متجنبا الصدام الظاهر المباشر معه ، ملتزما حقيقته الخاصه حتى تسنح له الفرصة لتجاوز واقعه والتغلب عليه ..

وكأي ظاهرة بشرية فان النفاق من ثم يخضع لمقاييس الاخلاق البشرية ومظاهرها ، فيلون فرديا وجماعيا وخاصا وعاما ، ضعيفا وقويا .

ولم يغفل البشر عن معرفة هذه الحقيقة ، ولذلك فان كل التجمعات والجماعات الانسانية تعرف ظاهرة النفاق وتواجهها بوسائلها المختلفة . وكل تجمع وكل حركة وكل فكرة وكل بناء اجتماعي او سياسي لا يدخر وسعه في كشف تلك العناصر «المنافقة التي تندس في بنائه وتكيد له وتعمل على هدمه .

ونحن حين نقرر هذه الحقيقة العامة نريد ان نعقب عليها بابراز حقيقة أهم هي ان كل الاديان والافكار والانظمة والنشاطات البشرية والتصورات المرتبطة بها ـ عدا الاسلام تمثل ركاما جاهليا يقف في صف الباطل . بينما يقف الاسلام وحده . وهو دين الله الحق . في الخط المواجه يمثل الهدى الذي ارسله الله الى البشر وختم به رسالاته لهم . وفي هذا الاطار وفي نطاق هذا المفهوم ، فان ظاهرة النفاق ـ عدا كونها ظاهرة مرضية ـ يختلف شأنها خارج الاطار الاسلامي . فالمنافق الذي ينافق انظمة وأفكارا جاهلية يستوي في نظر الاسلام هو والمخلص لتلك الانظمة والافكار . وينسحب عليهم جميعا ـ صادقهم ومنافقهم على السواء ـ وصف الكفر او الشرك او الالحاد حسب مقتضيات التصور الاسلامي ومصطلحاته الشرعية .

والكلمة تفقد معناها في الحس الاسلامي حين تستعمل خارج اطارها الذي أراده الاسلام لها . وقد يجيء وقت يضعف فيه الاسلام ويلتبس فيه الامر على الناس حتى يتجرأ اعداؤه على اطلاق اسم النفاق على المسلمين المخلص لانهم لم يتركوا اسلامهم لشعارات وافكار وانظمة غريبة مستوردة لا تمت للاسلام بصلة !! ولكن ذلك لا يغير من الحق والعبرة في هذا كله هو ما يقرره الاسلام في أصوله الصحيحة السليمة دون تحريف او تزيف . والامر بعد ذلك كله لله سبحانه يحكم بين عباده ـ «لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحِسَابِ» (الرعد) : ٤١

«يَوْمَ يَقُولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للذينَ آمنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارجعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ ۰ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُورُ ۰ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ » (الحديد : ١٣ ـ ١٥) ۰

والحمد لله تعالى على ما أعان ووفق ، وأساله سبحانه ان يجعل هـذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يتجاوز عن نبوة الفكرة وزلة القلم ، وأنا أبرأ اليه من كل حول وقوة فلا حول ولا قوة الا بالله ۰ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه ۰ **«سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين »** ۰

★ ★ ★